

الدستور الأخلاقي للدولة

في

ضوء القرآن الكريم

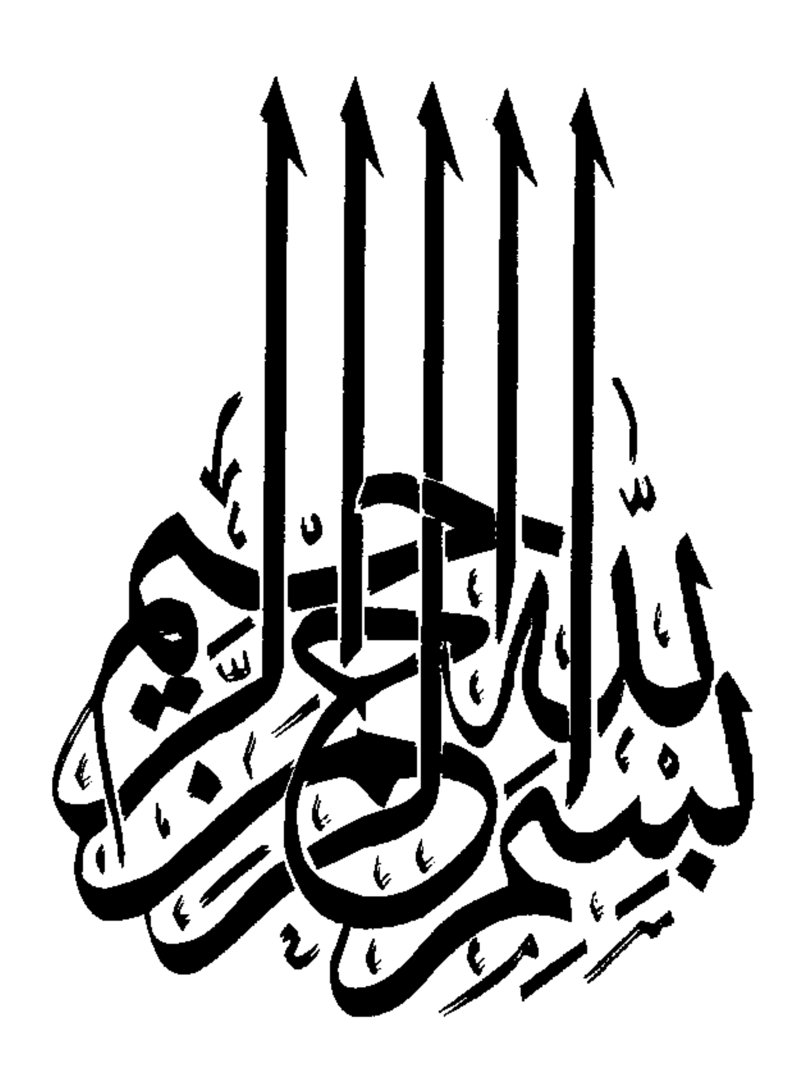
تأليف

د. السيد سيد أحمد محمد نجم

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن – جامعة الأزهر

أستاذ مساعد التفسير وعلوم القرآن – جامعة المدينة العالمية – ماليزيا




بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة



لله الذى هدانا للإسلام ، ومنّ علينا ببعثة خير الأنام ، أحمده تعالى على نعمه العظام، وأشكره على آلائه الجسام ، وأشهد أن لا إله إلا الله الملك القدوس السلام ، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله القدوة الإمام ، بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، أرسله على حين فترة من الرسل بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف بإذن ربه الغمة ، فتح الله به قلوباً غلفا ، وآذانا صما ، وأعينا عميا ، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الأبرار، وصحبه الأخيار، والتابعين ومن تبعهم بإحسان ما تعاقب الليل والنهار .

وبعد

فإن الأخلاق الحسنة هى أعظم ما تعتز به الأمم وتمتاز عن غيرها، والأخلاق تعكس ثقافة الأمة وحضارتها ، وبقدر ما تعلو أخلاق الأمة تعلو حضارتها وتلفت الأنظار لها ويتحير أعداؤها فيها ، وبقدر ما تنحط أخلاقها وتضيع قيمتها تنحط حضارتها وتذهب هيبتها بين الأمم .

وكم سادت أمة – ولو كانت كافرة – وعلت على غيرها بتمسكها بمحاسن الأخلاق ؛ كالعدل وحفظ الحقوق وغير ذلك ، وكم ذلت أمة – ولو كانت مسلمة – وضاعت وقهرت بتضييعها لتلكم الأخلاق .

يقول شوقي – رحمه الله – :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا[1]

وبقدر بعد مجتمع من المجتمعات أو أمة من الأمم عن محاسن الأخلاق ، واتصاف أبنائها بالأخلاق السيئة الرديئة ؛ يكون الضنك والشقاء ، بما يعني أن هذا المجتمع يعاني أزمة أخلاقية ربما تؤدي إلى انهياره .

ومن منطلق مسئوليتنا تجاه المجتمع ، وحتى نتصدى لمن يحاول أن ينشر في أرض مصر الفساد؛ رأيت أن أكتب في هذا الموضوع – مستعيناً بالله – ﷻ – ، راجياً أن يؤتي هذا البحث ثماره ، لعلنا نرجع إلى سابق عهدنا، ونتخلق بأخلاق نبينا (ﷺ) وصحابته الكرام . وسوف نتناول الأخلاق من ناحية أخرى ، وهي الأخلاق المرتبطة بالدولة سواء أكانت من ناحية الحاكم أم من ناحية المحكوم أم من ناحية العلاقات الخارجية .

(١) الأعمال الشعرية الكاملة – أحمد شوقي (٢/٢٣٠) ط : دار العودة – بيروت .

وتتميز هذه الدراسة بأن موضوعها الرئيسى هو الأخلاق القرآنية، على عكس من خاض هذا الغمار ؛ فإنه قد تناوله إما من ناحية النصائح العملية التى هدفها تقويم أخلاق الشباب ؛ حيث توحى إليهم الاقتناع بالقيمة العليا للفضيلة ، وإما من ناحية وصف لطبيعة النفس وملكاتها ، ثم تعريف للفضيلة وتقسيم لها .

أسأل الله – تعالى – القبول والسداد ، وأن يردنا إلى دينه مرداً جميلاً ، وأن يصلح أحوالنا وأحوال جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

د/ السيد سيد أحمد نجم

القسم الأول

واجبات الشعب [1]

أولاً : النظام

قال – تعالى – : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [2]

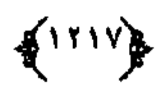
يعد احترام النظام إحدى القيم السلوكية الاجتماعية التى تعنى بها المجتمعات وتحرص عليها، وتعمل جاهدة على تربية الأفراد على احترامها والتمسك بها حتى يكون سلوكاً يعمل به وتتم مارسته من قبل الجميع .

وإذا أمعنا النظر فى تعاليم وتوجيهات وإرشادات ديننا الإسلامى الحنيف وتربيته الإسلامية، فإننا سنجدها – بدون شك – قد حثت ودعت إلى تفعيل هذه القيمة التى تأتى بها كمبدأ وشعار ينادى به الجميع، ثم

---

(١) رؤوس الموضوعات مأخوذة بتصرف من كتاب "دستور الأخلاق فى القرآن" – د/ محمد عبد الله دراز – ط : مؤسسة الرسالة – دار البحوث العلمية .

(٢) سورة الحشر ، الآية (٧) .



تحويله إلى سلوك يمارسه الأفراد فى حياتهم اليومية، ويتخلق به المجتمع فى كل شأن من شئون الحياة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، فإن على كل فرد من المجتمع أن يعنى عناية خاصة بمسئولياته المختلفة تجاه مجتمعه الذى ينتمى إليه، وأن يستشعر أهمية الواجب الملقى عليه فى هذا الشأن .

أما كيفية حفظ النظام فتكون بأن يدرك الإنسان أن النظام سلوك دينى ووعى حضارى ، وأن أكبر شواهده احترامنا لذواتنا ، والتزامنا بالصواب ، والبعد عن الخطأ فى جزئيات حياتنا ، والحذر من العشوائية والعبث والفوضى فى أى شأن مهما كان يسيراً .

كما أن من أهم أساليب احترام النظام أن يكون الإنسان – فى أى زمان أو مكان أو ظرف – قدوة حسنة وأسوة طيبة لمن حوله فى القول والعمل والمظهر، وأن يكون ملتزماً فى واقعه بالسلوك الاجتماعى المقبول فى المجتمع، وهو ما لا يمكن أن يتحقق إلا بالتحلى بالأخلاق الفاضلة، والتمسك بالقيم الخلقية والمبادىء والمثل العليا التى عليه أن يدعو إليها، وأن يبثها بين الآخرين من خلال تعامله الحسن وسلوكه المنظم وتصرفاته المنضبطة"[1].

والنظام يتعلق بكل شىء فى الحياة بدءاً من أصغر قضية وأيسر

---

(١) تربية الإسلام واحترام النظام – د/ صالح بن على أبو عرّاد – موقع صيد الفوائد .



شأن، وانتهاء بكل قضية ذات شأن، فالإسلام لا يقبل الفوضى بحال، ولا يسمح بوجود خلل أو اضطراب مهما كان يسيراً؛ لأن الخلل اليسير سيكبر ويزداد بمرور الوقت حتى يصبح خطراً داهماً، وضرراً كبيراً .

وإذا أخذنا مثالاً بالصلاة التى هى أعظم الفرائض ، نجد أن الإسلام وضع لها نظاماً متكاملاً ، بيّن من خلاله ما يشترط لصحة الصلاة، وما يجب فيها ، وما يندب ، كما بيّن كيف تؤدى ومتى وأين ؟

فلو أن شخصاً تعمد تأخير الصلاة حتى يخرج وقتها ، كان آثماً إثماً عظيماً ، ومرتكباً كبيرة من الكبائر ؛ لأنه ضيع وقت الصلاة ، وهذا يدل على أن احترام وقت الفريضة جزء من هذا النظام الكلى الذى يجب احترامه ، وعدم التهاون فيه .

وحيث يدخل المسلم إلى المسجد ليؤدى الصلاة فى جماعة ، يسمع الإمام وهو يخاطب المصلين قائلاً : استووا ، استقيموا ... فهو يأمرهم بالاستواء والاستقامة ، ويدعوهم إلى الاعتدال فى وقوفهم ، حتى تكون الأقدام بمحاذاة الأقدام ، والأكتاف بمحاذاة الأكتاف .

قد ينظر بعض الناس إلى هذه القضية على أنها قضية شكلية ، وليست لها أهمية ، لكننا حين نقرأ سنة الرسول (ﷺ) نجد أن لهذه القضية أهمية بالغة ، فعن ابن مسعود – ﷺ – قال : "كان رسول الله (ﷺ) يمسح مناكبنا فى الصلاة ، ويقول : "استووا ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين

يلونهم "(1).

وعن النعمان بن بشير – ﷺ – قال : "كان رسول الله (ﷺ) يسوى صفوفنا ، حتى كأنما يسوى بها القداح ، حتى يرى أنا قد عقلنا عنه ، ثم خرج يوماً ، فقام حتى كاد يكبر ، فرأى رجلاً بادياً صدره من الصف، فقال : عباد الله لتسوّنّ صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم "(2).

فهذا هو منهج النبى (ﷺ) يريد أن يعلمنا النظام فى كل شأن من شؤون الدين والدنيا، وأن تكون صفوفنا فى جميع الحياة مستقيمة منضبطة – أيضاً –، فمن حافظ على النظام فى الصلاة كان أجدر أن يحافظ على النظام فى سائر الأعمال .

لقد نبهنا ربنا – جل وعلا – على مظاهر كثيرة للنظام فى هذا الكون ، فالله – سبحانه – يقول عن نفسه : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ

(1) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : الصلاة – باب : تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها – ح (432) .

(2) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الأذان – باب : تسوية الصفوف عند الإقامة وبعدها – ح (717) .

ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [1] ، فهذا الكون مخلوق وفق نظام محكم دقيق ، ليس فيه أدنى خلل أو اضطراب . والآيات فى هذا المعنى كثيرة.

بل يحدثنا القرآن الكريم عن رجل له جنتان نظمهما أحسن تنظيم وزرعهما واهتم بهما غاية الاهتمام ، حتى صارت ثمارهما فى أحسن الأحوال، وأتم الإنتاج ، قال – تعالى – : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ... ﴾[2] .

والقرآن حين يقص القصة أو يضرب المثل ، يريد منا أن نفهم كل ما يمكن فهمه من إشارات ودلالات ، لا أن نمر بالقصة مروراً عابراً ، فما هذا الوصف للجنتين والعناية بهما وشق النهر خلالهما ، ووضع الزرع فى موضعه، والنخل يحف بالجنتين .. إلا بيان واضح لأهمية النظام فى إيتاء أحسن الثمار وتحصيل أفضل الإنتاج .

فإذا أردت أن تقيس حضارة ورقى أى بلد فى العالم فما عليك سوى النظر إلى مدى حبهم للنظام واحترام أفراده ومجتمعاته للقوانين

(١) سورة الملك ، الآيتان (٣ ، ٤) .

(٢) سورة الكهف ، الآيتان (٣٢ ، ٣٣) .

والأنظمة المعمول بها ، والتى شرعت وسنت من أجل الحفاظ على سير عجلة الحياة بهدوء وسلاسة ، وهى فى الواقع تحقق مصالح البشر ، بل هى مقصد شرعى ومطلب حيوى للأفراد والجماعات فى أى زمان ومكان فى العالم .

نعجب كثيراً حين نسمع ونشاهد ونقرأ عن تقدم ورقى المجتمعات فى الغرب والشرق ، بل حتى فى بلدان مجاورة لنا ، وكيف أن الحياة عندهم تسير وفق منهج ونظام أصبح سجية لدى الناس ولا يخالفه إلا النشاز ، لكن العجب كل العجب أن نبقى نحن عاجزين عن احترام النظام مع إيماننا الجازم بضرورة وأهمية تطبيقه .

إن احترام الأنظمة فى الغالب أمر ممكن وسهل التطبيق إذا ما أدركنا أهميتها وجدواها ، وطبقت العقوبات الرادعة على المخالفين .

لذلك دعانا القرآن الكريم إلى الانضباط والنظام فقال : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ .... ﴾

ومن جوانب النظام :

١- **احترام القوانين القائمة** : فهناك جوانب لها قوانين في المجتمع يجب على الفرد أن يرعى هذه القوانين ، وكمثال ونموذج مهم : قانون المرور ، فكل شخص لديه سيارة يريد أن يمشي في الشارع ، وله حق ، لكن مع كثرة السيارات ، ومع تجدد الاتجاهات لابد من نظام ، هذا النظام ينبغي أن يراعى وأن يحترم ، وإذا لم يراعى هذا النظام تحدث الحوادث وتحصل المآسي ، والإحصاءات والأرقام مذهلة عن نتائج مخالفات المرور ، فمن الناحية الشرعية يحرم على الإنسان أن يخالف أنظمة المرور ؛ لأن في هذه المخالفة خطراً على حياة المخالف نفسه وعلى حياة الآخرين .

٢- **تنظيم الحياة الاجتماعية** : فهناك بعض الجوانب في حياتنا ليست لها قوانين من قبل الدول ، وهي متروكة لنا ، مثل الجوانب الدينية والاجتماعية ، لذا علينا أن ننظم نحن حياتنا في هذه الجوانب ، فلا نحترم فقط القوانين والأنظمة التي تكون من جهة الحكومة ، بل علينا أن نعوّد أنفسنا على تنظيم حياتنا في هذه المجالات .

فالمجتمعات المتقدمة تنظم نفسها في مختلف الجوانب حتى في الدخول والخروج ، فترى الحركة منسابة بهدوء واحد وراء الثاني وبشكل منظم ، بينما ترى مجتمعات أخرى تتدافع في كل مكان ، حتى عند ركوب الطائرة – مثلاً – مع أن كل واحد له مقعد محدد فلن يجلس أحد على مقعده .

والخلاصة : أن تعاليم ديننا تحثنا على التنظيم ، يتضح ذلك فى كثير من مظاهر الدين ، وأن النظام يعطينا الكثير من الفوائد ؛ منها :

- يعلمنا تقدير أهمية الوقت .
- يعلمنا أهمية قيمة العمل .
- يعلمنا أهمية قيمة التنفيذ .
- يعلمنا كيف يحترم الإنسان القيم ؟

إذاً النظام يمثل ضرورة لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونه ، لذا نجد القرآن الكريم يكرر الكلام عن آفاق الكون ومشاهد الطبيعة تكراراً يلفت النظر ، وأكثر سور القرآن تستعرض الكون بآفاقه الواسعة وأنواعه الكثيرة ، وأقسامه المتعددة ، وأنه محكوم بنظام بالغ الدقة ، ويجرى وفق سنن مطردة ، ولا يشذ عنها أبداً ، يقول – ﷻ – : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1] ، فكل شىء يوحى بما لا يدع مجالاً للشك أن هناك

---

(١) سورة يس ، الآيات (٣٧ – ٤٠) .

ترتيباً ونظاماً محكماً .

وهذا النظام الإلهى يجرى علــى جميــع المخلوقــات ، علــى الإنســان والحيوان والنبات، وكل ما فى الكون له نظام يسير عليه ، ولــو حــدث خلل فى أى نظام لأدى – ربما – إلى كوارث ومصائب نتيجة تغيير السنن والأنظمة التى يسير عليها .

وأخيراً فإن ترسيخ ثقافة الالتزام بالنظام فى مجتمعنا مسئولية جماعيــة يجب أن تقوم بها عدة أطراف تبدأ بالأسرة ثم المدرسة والجامعة وتنتهى بالمؤسسات الحكومية ومنظمات المجتمع المختلفــة ، فــإذا مــا أردنــا لمجتمعنا أن ينهض ويتقدم فى مختلف المجالات فــإن بدايــة المســار الصحيح لتحقيق ذلك هو التزامنا بالنظام فى مختلف جوانب حياتنا كأفراد ومؤسسات ، فما أروع أن نعيش بنظام ونعمــل بنظــام ونتعامــل مــع الآخرين بنظام .

ثانياً : الطاعة المشروطة

قال – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ (١)

ذهب الفقهاء – رحمهم الله – إلى ان تنصيب الخليفة واجب بالإجماع(٢).

وعلى هذا اعتبر الفقهاء – رحمهم الله – لزاماً على الأمة التى اختارت إماماً وخليفة بإرادتها أن تطيعه ؛ لأن طاعة الحاكم ضرورية لتمكين الدولة من تنفيذ أهدافها ، وتحقيق أغراضها ، وقد استندوا فى ذلك على نصوص من القرآن الكريم والسنة ، ومنها الآية السابقة ، فقد قال العلماء فيها : المراد بأولى الأمر : من أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء

---

(١) سورة النساء ، الآية (١٥٩) .

(٢) ينظر : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة – لـ : أحمد بن عبد الله القلقشندى (٢٩/١) ط : مطبعة حكومة الكويت – الثانية – ١٩٨٥م – ت/ عبد الستار أحمد فراج .

وغيرهم[1].

ومن السنة أحاديث كثيرة ، منها :

١- عن أبى ذر - ﷺ - قال :

"إن خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع ، وإن كان عبداً مجدّع الأطراف"[2].

٢- قال (ﷺ) : "**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل** عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة"[3].

فقد أفاد الحديث وجوب السمع والطاعة للأمير ، وإن كان غير رفيع النسب ، ولو كان عبداً أسود مقطع الأطراف ، فطاعته واجبة .

---

(١) شرح النووى على صحيح مسلم - للإمام النووى (٢٢٣/١٢) ط : دار إحياء التراث العربى - بيروت - ١٣٩٢ هـ - الثانية .

(٢) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : المساجد ومواضع الصلاة - باب : كراهية تأخير الصلاة عن وقتها المختار ... ح (٦٤٨)، ومعنى "مجدّع الأطراف"، أى: مقطع الأطراف، والجعد بالدال المهملة: القطع. صحيح مسلم بشرح النووى للإمام النووى (١٤٩/٥).

(٣) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الآذان - باب : إمامة العبد والمولى - ح (٦٩٣) .

٣- وعن أبى هريرة – ﷺ – قال : قال (ﷺ) : **"من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية"**(١).

فدل الحديث على وجوب الطاعة، وملازمة الجماعة المؤمنة ، وإلا فمن تركها وفارق الجماعة ومات ، مات على صفة موت الجاهلية، من حيث هم فى فوضى لا إمام لهم (٢).

فالإسلام يعتبر أنه لا يمكن تماسك بنيان الأمة ، وتعاضد قلوب أفرادها، والمحافظة على وحدتها ومكانتها ، دون السلطة السياسية للحاكم المسلم، التى تقابل بالطاعة ، والخضوع ، والانقياد .

ولكن السؤال الآن – الذى قد يتبادر إلى أذهان قارىء هذه الأدلة القرآنية والنبوية – هل هذه الطاعة مطلقة ؟

وبمعنى آخر : هل تجب الطاعة للإمام حتى ولو لم يلتزم بالشريعة الإسلامية أو لم يلتزم بالوفاء بشروط عقد الإمامة ؟

أقول :

---

(١) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : الإمارة – باب : وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفى كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة – ح (١٨٤٨) .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (١٢/٢٣٨) .

يُعد الإسلام طاعة الحكماء فريضة دينية ، ودعامة من دعائم الحكم؛ لذا أوجبها على الرعية حتى يستقيم حال الأمة ، وتتماسك قوية في بنياتها، وقد شدد الإسلام على وجوب الطاعة ، وتوعد من خالفها .

بيد أن تلك الطاعة ليست مطلقة ، فليس ثمة طاعة مطلقة إلا لله – سبحانه وتعالى – ؛ لأن الخالق الرازق صاحب الحكم والتشريع . أما طاعة الحكام فهي مقيدة بمدى تطبيق شرع الله – تعالى – ، ومدى التزامه ووفائه بعقد الإمامة ، فهي طاعة ليست عمياء ، إنما طاعة في المعروف ، وفي حدود الاستطاعة ، وعلى هذا فإن طاعة الرعية للحاكم منوطة ومقيدة بثلاثة شروط :

١- **تطبيق منهج الله** – سبحانه وتعالى – ، وذلك بالتزام أوامره ، وإرساء تعاليمه ، والحكم بين الناس بالعدل ، وأداء الأمانات إلى أهلها .

وقال علي بن أبي طالب – ﷺ – : "حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ، وأن يؤدي الأمانة ، وإذا فعل ذلك ، فحق على الناس أن يسمعوا ، وأن يطيعوا ، وأن يجيبوا إذا دعوا "(١).

٢- **ألا يأمر الناس بمعصية** : فمن مهام الحاكم المسلم تبليغ الدعوة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وحراسة الرأي

---

(١) أخرجه الطبري في "تفسيره" (١٤٥/٥) ، والسيوطي في "الدر" (٥٧١/٢) .

العام فى كل بقعة من المجتمع الإسلامى . فإذا ما تجرأ الحاكم ، فأمر الرعية بأوامر تناقض الشريعة، فلا طاعة له، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

روى الإمام أحمد بسنده إلى عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ): **"إنه سيلى أمركم من بعدى رجال يطفئون السنة ، ويحدثون البدعة، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها، قال ابن مسعود: كيف بى إذا أدركتهم؟ قال : ليس يا ابن أم عبد طاعة لمن عصى الله. قالها ثلاث مرات"**[1].

ونحوه ما رواه عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: **"سيليكم أمراء بعدى، يعرفونكم ما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفون، فمن أدرك ذلك منكم فلا طاعة لمن عصى الله**[2].

وهى روايات تؤكد موضوع الطاعة النسبية، وحق الأمة بخلع الإمام إذا ما انحرف عن العدل أو الالتزام بالشريعة الإسلامية.

---

(١) أخرجه أحمد فى "مسنده" (٣٩٩/١) ط : مؤسسة قرطبة – مصر .

(٢) أخرجه الحاكم فى "المستدرك" (٤٠١/٣) ط : دار الكتب العلمية ، وأحمد فى "مسنده" (٣٢٥/٥) .

وقال ابن حجر – رحمه الله – : "إن الخروج بالسيف على أئمة الجور مذهب للسلف قديم"[1]. على أن هناك آراء أخرى تقول بالطاعة المطلقة حتى لو كان الحاكم ظالماً ، خوفاً من الدخول فى الفتن والفوضى، وهؤلاء لهم أدلتهم – أيضاً – .

٣- **أن تكون الطاعة فى حدود استطاعتهم** : حتى يتسنى للرعية الإيفاء بالواجبات المترتبة على البيعة ، ذلك أن القاعدة العامة فى التكاليف قوله – تعالى – : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[2] وقوله : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[3] .

وقد روى ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : كنا إذا بايعنا رسول الله (ﷺ)على السمع والطاعة يقول لنا : فيما استطعتم(٤) .

فدل هذا الحديث على أن الطاعة لا تكون إلا فى حدود الاستطاعة، فقد كان النبى (ﷺ) يلقن صحابته ذلك ، من كمال شفقته

---

(١) تهذيب التهذيب – لابن حجر العسقلانى (٢/٢٥٠) ط : دار الفكر – بيروت – الأولى – ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م .

(٢) سورة البقرة – من الآية (٢٨٦) .

(٣) سورة التغابن ، من الآية (١٦) .

(٤) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الأحكام – باب : كيف يبايع الإمام الناس – ح (٧٢٠٢) .

ورأفته بأمته ، يلقنهم أن يقول أحدهم : فيما استطعت ، لئلا يدخل في عموم بيعته ما لا يطيقه .

والذى يبين حال الحاكم من عدله أو جوره ، أو صلاحه أو فساده ؛ هم العلماء الربانيون ، لا عوام الناس ؛ لأن الأمر دقيق ، وقد يحدث بسببه فتن لا تخرج البلاد منها ، حتى إن بعض العلماء رأى عدم جواز الخروج على الحاكم إلا إذا أتى كفراً بواحاً ، مستدلين بحديث عبادة بن الصامت - ﷺ - عن جنادة - بن أبى أمية قال : دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض ، قلنا : أصلحك الله ، حدّث بحديث ينفعك الله به ، سمعته من النبى (ﷺ) ، قال : "دعانا النبى (ﷺ) فبايعناه ، فقال فيما أخذ علينا ، أن بايعنا على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثره علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان"[1].

واستدلوا - أيضاً - بحديث : عن عوف بن مالك الأشجعى عن رسول الله (ﷺ) قال : خيار أئمتكم الذين تحبوهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنوهم ويلعنونكم ، قال: قلنا : يا رسول الله : أفلا ننابذهم عند ذلك ؟

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الفتن - باب : سترون بعدى أمروا تنكرونها - ح (٧٠٥٦) ، ومسلم فى "صحيحه" ، كتاب : الإمارة - باب : وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية وتحريمها فى المعصية - ح (١٧٠٩) .

قال : "لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، ألا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة [1].

وغير ذلك من الأدلة الكثيرة التى قيلت فى هذا الباب ، حتى نقل الإمـــام النووى – رحمه الله – الإجماع على عدم الخروج عليهم ، فقال : "وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المســلمين ، وإن كـــانوا فســقة ظالمين ، وقد تظاهرت الأحاديث على ما ذكرته ، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق "[2].

حتى قال الإمام القرطبى – رحمه الله – : "والذى عليه الأكثر من العلماء أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه، لأن فى منازعاته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وانطلاق أيدى السفهاء، وشن الغارات على المسلمين ، والفساد فى الأرض"[3] أ هـ .

وقال حرب الكرمانى – رحمه الله – فى عقيدته التى نقلها عن جميع السلف: قال: "وإن أمرك سلطان بأمر فيه لله معصية فليس لك أن تطيعه

(١) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : الإمارة – باب : خيار الأئمة وشرارهم – ح (١٨٥٥) .
(٢) شرح النووى على صحيح مسلم (٢٢٩/١٢) .
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠٩/٢) .

ألبتة ، وليس لك أن تخرج عليه ولا تمنعه حقه"[1].

وقال ابن تيمية – رحمه الله – : "ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبراراً كانوا أو فجاراً "[2].

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوى – رحمه الله – : "ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمرنا، وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله – ﷻ – فريضة ما لم يأمروا بمعصية ، وندعو لهم بالصلاح والعافية "[3].

وقال سهل بن عبد الله التسترى[4] – رحمه الله – : "لا يزال الناس بخير

---

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل – لـ : عبد القادر بن بدران الدمشقى (٨٩/١) ط : مؤسسة الرسالة – بيروت – الثانية ١٤٠١ هـ – ت/ د/ عبد الله بن عبد المحسن التركى .

(٢) مجموع الفتاوى (١٥٨/٣) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية – ابن أبى العز الحنفى (٤٢٨/١) ط : المكتب الإسلامى – بيروت – ١٣٩١ هـ – الرابعة .

(٤) هو سهل بن عبد الله التسترى، أبو محمد، صاحب كرامات، لقى ذا النون، وكان له اجتهاد ورياضات، وهو ورع، سكن البصرة زماناً، مات سنة ثلاث وثمانين، وقيل: ثلاث وسبعين، وأظنه توفى بتستر. طبقاً الأولياء – ابن الملقن سراج الدين أبو حفص (٢٣٢/١ وما بعدها) بتصرف – دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت – ١٩٨٦م – الأولى – ت/ نور الدين شريبة .

ما عظموا السلطان والعلماء ، فإن عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، وإن استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم"(١).

وأرى – والله أعلم – من خلال استقراء كلام طويل من العلماء المحققين إلى أن ثمة ضوابط ومسائل مهمة ينبغى مراعاتها فى موضوع طاعة الأئمة والحكام ، منها :

١- أن الطاعة لأصحاب الولايات الشرعية ، وهذا أمر بدهى دل عليه القرآن الكريم .

٢- لا طاعة لمن يأمر بمعصية الله – ﷻ – أو أتى كفراً بواحاً .

٣- لا طاعة مطلقة إلا لله – ﷻ – ولرسله – عليهم السلام – ، وكلام العلماء فى ذلك واضح وجلى .

٤- العلماء الربانيون هم من يبينون للناس ، ويقدرون الأمور بمقاديرها ، ويزنون أحوال الطاعة للحاكم أو الخروج عليه بميزان دقيق ، وعلى عوام الناس السمع للعلماء – الذين ليس لهم هوى – ، وخصوصاً فى وقت نزول الفتن والتباس الأمور ، ولا يترك الأمر ليدلى كل واحد برأيه ، حتى لا تنشأ الفوضى ، وتختلط الأمور .

٥- الاحتساب فى طاعة الحاكم الظالم :

---

(١) الجامع لأحكام القرآن – للإمام القرطبى (٥/٢٦٠) .

فقد قال (ﷺ) : "**اصبروا حتى تلقونى على الحوض**"(١).

فالواجب الحذر عند التعامل فى هذه القضية بالذات ، والواجب على ولاة الأمر أن يأخذوا بالقوة على يدى من يثير الفتن وترويع الآمنين ؛ لأن النبى (ﷺ) نهى عن إثارة الفتن ، وعن أسباب إثارتها ، وأخبر أن الفتن لا تعود على الأمة بخير ، بل إنه نهى عن حمل السلاح ، وعن المشاركة فى الفتن ، لاسيما هذه الفتن التى تقوم من أجل الولايات والمناصب الدنيوية ، عن المقداد بن الأسود؛ قال : قال رسول الله (ﷺ) : "**إن السعيد لمن جنب الفتن ولمن ابتلى فصبر**"(٢).

وقد حرر بعض العلماء المسألة؛ فقالوا : إذا رأى المسلمون كفراً بواحاً عندهم من الله فيه برهان ، فلا بأس أن يخرجوا على هذا السلطان لإزالته إذا كان عندهم قدرة ، أما إذا لم يكن عندهم قدرة فلا يخرجوا ، أو كان الخروج يسبب شراً أكثر فليس لهم الخروج رعاية للمصالح العامة ، والقاعدة الشرعية المجمع عليها : "أنه لا يجوز إزالة الشر بما هو أشر منه ، بل يجب درء الشر بما يزيله أو يخففه " ، أما درء الشر بشر أكثر فلا يجوز بإجماع المسلمين ، فإذا كانت هذه الطائفة التى تريد

---

(١) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الفتن – باب : قول النبى (ﷺ) "سترون بعدى أموراً تنكرونها" وقال عبد الله بن زيد : قال النبى (ﷺ) : "اصبروا حتى تلقونى على الحوض".

(٢) أخرجه أبو داود فى "سننه" (١٠٢/٤)، والطبرانى فى "المعجم الكبير" (٢٥٢/٢٠).

إزالة هذا السلطان الذى فعل كفراً بواحاً عندها قدرة تزيله بها، وتضع إماماً صالحاً طيباً من دون أن يترتب على هذا فساد كبير على المسلمين ، وشر أعظم من شر هذا السلطان فلا باس، أما إذا كان الخروج يترتب عليه فساد كبير، واختلال الأمن، وظلم الناس، واغتيال من لا يستحق الاغتيال ... إلى غير هذا من الفساد العظيم، فهذا لا يجوز، بل يجب الصبر، والسمع والطاعة فى المعروف، ومناصحة ولاة الأمور، والاجتهاد فى تخفيف الشر وتقليله، هذا هو الطريق السوى الذى يجب أن يسلك ، لأن فى ذلك مصالح للناس عامة. والله أعلم .

ثالثاً : الاتحاد حول المثل الأعلى

قال – تعالى – : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ (١)

وقال – تعالى – : ﴿ ... وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٢)

إن من أهم عوامل قوة الأمم ؛ الاتحاد ، بالاتحاد تنال الأمم مجدها، وتصل إلى مبتغاها ، وتعيش حياة آمنة مطمئنة ، بالاتحاد تكون الأمة مرهوبة الجانب ، عزيزة السلطان .

إن واقع المسلمين اليوم يشهد فرقة ملموسة ، وغفلة تامة ، وبثا لبذور الاختلاف ، ونراهم لاهثين فى البحث عن كل ما من شأنه تشتيت ما بقى من أشلاء هذه الأمة .

ولذا فإننا نقول بأن الوحدة بين المسلمين واجبة، بنصوص القرآن والسنة. فلقد جاء الأمر ذلك صريحاً فى القرآن الكريم، كما فى قوله –

---

(١) سورة آل عمران ، من الآية (١٠٣) .

(٢) سورة الروم ، الآيتان (٣١ ، ٣٢) .

تعالى – ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ... ﴾ .

قال الإمام القرطبى – رحمه الله – : "فإن الله – تعالى – يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة ، فإن الفرقة هلكة ، والجماعة نجاة ، ورحم الله ابن المبارك ، حيث قال :

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا منه بعروته الوثقى لمن دانا[1]

وأخرج الطبرى عن عبد الله بن مسعود – ﷺ – قال : "حبل الله الجماعة"[2] أى جماعة المسلمين .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة – ﷺ – قال : قال رسول الله (ﷺ): "**إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويكره لكم ثلاثا ، فيرضى لكم أن تبعدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**"[3].

فهذه الأدلة تأمر المسلمين بالأخذ بكل ما يزيد المحبة بينهم ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٥٩/٤) .

(٢) تفسير الطبرى (٣٠/٤) .

(٣) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : الأقضية – باب : النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهى عن منع وهات – ح (١٧١٥) .

والنهى عن كل ما يؤدى إلى البغضاء .

ومن أساليب القرآن – أيضاً – وكذلك السنة النبوية ؛ فى الدلالة على وجوب الوحدة بين المسلمين النهى الصريح عن الافتراق والاختلاف الذى هو ضد الوحدة والاجتماع. قال الله – تعالى – : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[1].

قال الإمام الطبرى – رحمه الله – : "يقول – تعالى ذكره – للمؤمنين به : أطيعوا أيها المؤمنون ربكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، ولا تخالفوهما فى شىء ، (ولا تنازعوا فتفشلوا) يقول : ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم فتفشلوا ، يقول : فتضعفوا وتجبنوا وتذهب ريحكم"[2].

وأخرج الطبرى عن ابن عباس فى قوله – تعالى – : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (٤٦) .

(٢) تفسير الطبرى (١٠/١٥) .

وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] ، قال : "فى هذا ونحوه من القرآن أمر الله – جل ثناؤه – المؤمنين بالجماعة ، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله "[2].

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : خطبنا عمر بالجابية فقال : يا أيها الناس ، إنى قمت فيكم كمقام رسول الله (ﷺ) فينا ، ثم ذكر خطبة جاء فيها: "عليكم بالجماعة ، وإياكم والفرقة ، فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد ، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ..."[3].

والأدلة فى هذا الباب كثيرة جداً ، ولو ذهبنا نستقصى شواهد الشريعة التى تفيد بمجموعها وآحادها وجوب اجتماع كلمة المسلمين لطال بنا المقام ، لكن حسبنا فيما تقدم من إشارات ما يكفى لمن وقف عندها ووعاها .

إن التاريخ يشهد أن من أهم أسباب سقوط الدول على اختلاف عقائدها ومللها التفرق والاختلاف ، سقطت الخلافة العباسية بعد أن تفرقت

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١٠٥) .

(٢) تفسير الطبرى (٣٩/٤) .

(٣) أخرجه الترمذى فى "سننه" فى كتاب : الفتن – باب – ما جاء فى لزوم الجماعة – ح (٢١٦٥) .

الدول الإسلامية فى تلك الوقت ، فنشأت الدولة البويهية ، والمماليك ، ودويلات الشام، ولم يبق للخلافة العباسية إلا مزع متفرقة متناثرة من العالم الإسلامى، فلما زحف المغول إلى بغداد لم يقف فى وجه زحفهم غير أهل بغداد ، فأعملوا فيهم القتل حتى قتلوا أكثر من ثمانمائة ألف نسمة ، كما قال غير واحد من المؤرخين.

وسقطت الدولة الإسلامية فى الأندلس بعد أن أصبحت دويلات متفرقة متناحرة ، لا هم لأحد سوى التلقب بألقاب الملك والسلطان حتى ولو كان على بقعة لا تجاوز حظيرة خراف .

مما يزهد فى أرض أندلس	أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها	كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد(١)

ولم تسقط الدولة العثمانية إلا بعد أن تمزق جسدها إلى أشلاء متناثرة، وبعد أن أغرى الصليبيون الجدد بعض زعماء المسلمين بالانفصال عنها، وعملوا بقاعدة: "فرق تسد".

وها هو العالم الإسلامى اليوم منقسم إلى دويلات متناحرة، تعيش على هامش التاريخ، ويتجرع ألوان الهوان.

---

(١) الأبيات لابن رشيق القيروانى – ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – لأحمد بن محمد المقرى التلمسانى (٢١٤/١) ط : دار صادر – بيروت – ١٣٨٨ هـ – ت/د . إحسان عباس .

صوت الشعوب من الزئير مجمعا   فإذا تفرق كان بعض نباح (١)

إن ما ظفر به أعداء الأمة من سطو واستيلاء لا يرجع إلى خصائص القوة فى أنفسهم بقدر ما يعود إلى آثار الوهن فى صفوف أصحاب الحق، فالفرقة تجعل هلاك الأمة بيد أبنائها فى سلاسل من الحروب فى غير معركة وانتصارات بغير عدو .

والخلاصة : أنه إذا اتحدت قلوب الأمة على الحق ، وتألفت نفوسها على الخير، وطهرت مجتمعها من الرذيلة ، وتعاون أفرادها وجماعاتها على البر والتقوى ، نالوا الخير العظيم ، والسعادة الأبدية ، وفازوا بالرقى المحمود ، وشيدوا بناء مستقبلهم على أساس من الدين ، ونور من رب العالمين .

أما إذا سادت دعوات القومية والعصبية والعنصرية، وحصل الشقاق ووجد التفرق والتناحر ، كانت المصيبة العظمى والطامة الكبرى التى تهدم بنيان الأمم المشيد ، وتقضى على حضارتها ، وتحكم على مستقبلها بالذل والتقهقر ، وتنذرها بوخامة العاقبة ، وسوء المصير .

وإننا إذا نظرنا إلى الفجوة السحيقة التى تردى فيها بعض أبناء المجتمع الإسلامى اليوم ، تبين مدى ما وصلوا إليه من المخالفة الصريحة لأوامر الله ورسوله (ﷺ) ، والدلائل على ذلك بارزة يلمسها كل من رزق أدنى مقدار من الإيمان ، وأكبر دليل على ما تقدم هو وجود

---

(١) ديوان أحمد شوقى (٣١٢/١) ط : دار العودة – بيروت – ١٩٨٨ .

هذه التناحرات التى منى بها العالم الإسلامى من الدعوى إلى التفرق والتشرذم ، ونبذ الدعوة الإسلامية ، ومعاداة من دعا إليها ، وهى الأساس لهذا الدين الحنيف ، والعنوان لمجد الإسلام المنيف.

إن المجتمع الإسلامى قد أصيب بتشعب الآراء ، وتباين مذاهب الناس، وتغيرت وجهات الأمة وأصبح العالم الإسلامى يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال، لا يدرى ما الله صانع فيه ، وإن الذى يضمن السعادة والنجاح ، ويحقق الفوز والفلاح هو الرجوع إلى الله ، والسير على هدى كتاب الله الذى أنزله نوراً وبرهاناً ، والتمسك بسنة رسوله (ﷺ) .

وألتمس هذه المناسبة لأنادى بأعلى صوتى من منبر هذا البحث على جميع المسلمين؛ أن قوموا لله واعتصموا بحبل الله ، واطمعوا فى نصر الله ، فالله مع الصابرين ، وهو نعم المولى ونعم النصير، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا ، وحكموا شرع ربكم فى نفوسكم وفى حياتكم ، أسأل الله – تعالى – أن يمن على الجميع بالهداية والتوفيق ، وأن يسلك بنا وبكم أحسن منهج وأقوم طريق ، وأن ينصر دينه ويعلى كلمته ، وأن يحفظ بلادنا ، إنه جواد كريم رؤوف رحيم .

رابعاً : التشاور في القضايا العامة

قال – تعالى – : ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [1].

الشورى مبدأ هام فى الإسلام ، وقد خص الله – تبارك وتعالى – لها سورة فى القرآن ؛ وهى سورة الشورى ، قال فيها – سبحانه وتعالى – مادحاً المؤمنين ومبيناً أنها صفة لهم : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ ، وجعل الله – تعالى – الشورى فى الآية ما بين الصلاة والإنفاق ؛ وهما عمودان رئيسيان فى الإسلام، وذلك لبيان أهمية الشورى .

والشورى تربى الإنسان على أن ينفى رأيه حتى يستفيد من آراء الآخرين، فهى تجعل الإنسام ملم بكل جوانب الموضوع، وتعلمه التواضع وخفض الجناح واللين.

---

(١) سورة الشورى ، الآيات (٣٦ – ٣٨) .

وإذا كنا قد تكلمنا عن الشورى من ناحية الحاكم ؛ فإننا – أيضاً – نريد أن نعمق مفهوم الشورى عموماً ، فالأمة الواعية تضع ثقتها فى الجماعة أكثر مما تضعها فى الفرد ، كما أن الجماعة أقدر على كسب الثقة من الفرد .

وقد قيل : أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله ؛ ذلك لأن العقول كالمصابيح إذا اجتمعت ازداد النور ووضح السبيل .

وللشورى فى الإسلام خصائص ، منها :

- أنها جزء من الدين ، وطاعة لله ، وقدوة صالحة يؤمر بها الأنبياء قبل غيرهم ، حتى لا يتعاظم عليها من يدّعون النزاهة الأهلية والفقه ، فليس بعد الأنبياء فى الصلاح والعصمة أحد .

فالشورى هى السبيل إلى الرأى الجماعى الذى فيه خير الفرد والمجتمع ، قال (ﷺ) : "**إن أمتى لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافا فعليكم بالسواد الأعظم**"(1).

- أن الشورى يجب أن تتم فى إطار الشريعة ، وأن تقوم على أخوة المسلمين وتراحمهم ، وعلى أنهم أمة الأمر بالمعروف والنهى عن

---

(1) أخرجه ابن ماجة فى "سننه" كتاب : الفتن – باب : السواد الأعظم – (١٣٠٣/٢) ط : دار الفكر – بيروت – ت/ محمد فؤاد عبد الباقى .

المنكر ، التى عليها نشر الإيمان بالله .

- أن الشورى عبادة وبحث عن الحق والصواب، ووسيلة للكشف عن المواهب والقدرات، واختبار لمعادن الرجال ، وجمع للقلوب وتأليفها ، وتربية للأمة ، وبناء لقواها الفكرية ، وتنسيق لجهودها ، وإفادة من كل عناصرها ، وإغلاق لأبواب الشرور والفتن والأحقاد .

- أن الشورى توحيد للجهود ، وربط لجميع مستويات الأمة برابط من نور؛ لما فيه قوتها وتماسكها، وعزة الإسلام ورفعة رايته، قال الحسن: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم[1].

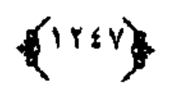
يقول الأستاذ/ سيد قطب – رحمه الله – عند قوله – تعالى – : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ "والتعبير يجعل أمرهم كله شورى، ليصبغ الحياة كلها الصبغة، وهو كما قلنا نص مكى ، كان قبل قيام الدولة الإسلامية، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة فى حياة المسلمين ، إنه طابع الجماعة الإسلامية فى كل حالاتها ، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد .

وقد جاءت الأحاديث الكثيرة التى تبين أهمية الشورى – عموماً – ومن ذلك ما يلى :

١– عن أبى هريرة – ﷺ – قال : "ما رأيت أحداً قط كان أكثر مشورة

---

(١) ذكره السيوطى فى " الدر المنثور " (٣٥٧/٧) .



لأصحابه من رسول الله (ﷺ)"[1].

٢- وعن على بن أبى طالب – ﷺ – قال : سئل رسول الله (ﷺ) عن العزم ، قال : "**مشاورة أهل الرأى وإتباعهم**"[2].

٣- وعن أبى هريرة – ﷺ – عن النبى (ﷺ) قال : "المستشار مؤتمن"[3].

٤- وعن جابر – ﷺ – قال : قال رسول الله (ﷺ): "**إذا استشار أحدكم أخاه فليشر عليه**"[4].

ولقد كثر كلام العلماء حول مسألة : هل الشورى ملزمة للحاكم ؟

فتناول العلماء هذه القضية بين مؤيد ومعارض ، والمجال لا يتسع

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى "مسنده" (٣٢٨/٤) ، والبيهقى فى "سننه" (٢١٨/٩) .

(٢) أخرجه السيوطى فى "الدر المنثور" (٣٦٠/٢) ، وذكره الشوكانى فى "فتح القدير" (٣٩٥/١) ط : دار الفكر – بيروت .

(٣) أخرجه الحاكم فى "المستدرك" (١٤٥/٤) ، وأبو داود فى "سننه" (٣٣٣/٤) .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى "سننه" (١٢٣٣/٢)، والطبرانى فى "المعجم الكبير" (٣٥٤/٢٢).

لسرد أدلة كل فريق ، لكن القول بأن الشورى غير ملزمة للحاكم معناه إلغاء إرادة الأمة، وخضوعها لنزعات الاستبداد الفردى عند الحاكم ، وحسبنا من الأدلة السابقة ما يبين أن الشورى ملزمة للحاكم – والله أعلم – .

وإذا نظرنا إلى طريقة الشورى فى الإسلام نجد أن الإسلام لم يحدد طريقة معينة للشورى ، وإنما تركها للأمة تكيفها مع ظروفها وتطوراتها .

والخلاصة : أن الشورى شاملة لكل أمور وقضايا المسلمين العامة والخاصة ، الفردية والجماعية ، فهى أبرز صفات المسلمين .

- وأن الشورى حق لكل فرد من أبناء المسلمين .
- وأن الشورى عبادة ، يتقرب بها إلى الله – ﷻ – كل شخص يستشير أو يُشار.
- أن الشورى نعمة من الله ورحمة منه للراعى والرعية ، عندها تحكم صلتهم فيما بينهم .
- وأن الشورى مشروعة للحكام فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين وسياسة الرعية ، ويلحق بهؤلاء القضاة وكل ذى مسئولية فى إدارة أو أسرة أو غيرها ، ولكن الأمر فى شأنهم أخف من الولاة ، وهى واجبة على الحكام – فى أصح الأقوال .

وأما غير الحكام فهى مشروعة لهم ، ولكن عبارات الفقهاء – غالباً – تفيد الاستحباب فقط ، إذ يقولون – دائماً – ينبغى .. ويدل لمشروعيتها لغير الحكام ما دل عليه القرآن من أهمية شورى الأبوين فى فطام الرضيع وغير ذلك.

قال ابن عاشور – رحمه الله – عن الشورى :

"إنما تكون فى الأمر المهم المشكل من شؤون المرء فى نفسه أو شؤون القبيلة أو شؤون الأمة"[1] أ هـ . والله أعلم .

---

(١) التحرير والتنوير – محمد الطاهر ابن عاشور (١٤٧/٤) – ط : دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧م .

خامساً : تجنب الفساد

قال – تعالى – : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (1).

وقال – ﷻ – : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (2).

وقال – تعالى – : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (3).

الفساد ظاهرة خطيرة تصيب جميع مجتمعات العالم ، النامية والمتطورة والمتقدمة على حد سواء ، وإن كان بدرجات متفاوتة .

الفساد آفة تدمر جهود التنمية وتمتص عائداتها ، ومن المؤسف أن الفساد يزيد الفقراء فقراً والأثرياء ثراء إذا كانوا فاسدين ، وفي ظل الفساد تنعدم العدالة الاجتماعية ، فلا عدالة مع الفساد ، بل ولا تنمية مع

---

(1) سورة الأعراف ، من الآية (٥٦) .

(2) سورة الرعد ، الآية (٢٥) .

(3) سورة البقرة ، الآية (٢٠٥) .

الفساد ، فالمجتمع الذى ينشد النمو والرخاء والتقدم والازدهار والقوة لابد له من أن يتخلص أولاً من الفساد ويبسط قيم الإصلاح .

والفساد آفة العصر ، ويعوق جهود التقدم والنماء والرخاء ، فضلاً عن تحطيمه وتدميره للقيم الأخلاقية والوطنية والعربية والإسلامية ، والفساد يجعل أفراد المجتمع يشعرون باليأس والإحباط ويفقدون الأمل فى الإصلاح وفى التطوير وفى التقدم والرخاء وبسط العدالة والديمقراطية[1] .

إن الفساد فى الأرض شامل لأنواع الفساد كله ، سواء كان هذا الفساد فى المعتقد ، أو فى الأخلاق والسلوك ، أو فى المعاملات ، فى كل شئون الحياة ، فأعظم فساد فى الأرض الإفساد فيها بالشرك بالله ، بعبادة غيره ، بدعاء غيره .

فالمفسدون فى الأرض الذى ينشرون الباطل والإلحاد ، ويدعون إلى الضلال ، ومخالفة الشريعة ، والتنكر لها ، ويعتقدون أن هذه الشريعة قد انتهى دورها فى الحياة ، وأن العالم يجب أن تكون له نظم وقوانين بعيدة عن هذا الدين وتعاليمه ، ذلك أعظم الفساد وأشره ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ

---

(١) دور الوعى الإسلامى فى مكافحة الفساد – د/ عبد الرحمن العيسوى – مجلة الوعى الإسلامى – العدد/ ٥٥٢ – يوليو ٢٠١١م .

يُوقِنُونَ ﴾ (١).

من أنواع الفساد من يظن أن البشرية لا يمكن أن تبقى على الكتاب والسنة، ويزعمون أن الكتاب والسنة قد انتهى دورهما فى الحياة ، وأن العالم يجب أن ينبذ هذا الكتاب والسنة ، لأنها تراث قديم ، وأن الواجب أن تحكم قوانين ونظم على أنقاض هذه الشريعة ، كل هذا من السعى فى الأرض بالفساد.

والفساد فى الأرض يكون – أيضاً – بأنواع المعاصى والمخالفات لشرع الله ، بارتكاب نواهيه ، وتعطيل أوامره ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٢).

ومن أنواع الفساد : التعامل بالرشوة بين الناس ، ففى ذلك بلاء عظيم ، قال (ﷺ) : "لعن الله الراشى والمرتشى"(٣).

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (٥٠) .

(٢) سورة الروم ، الآية (٤١) .

(٣) أخرجه ابن حبان فى "صحيحه" كتاب القضاء – باب : الرشوة – (٤٦٧/١١) – ط : مؤسسة الرسالة – بيروت – الثانية – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م – ت/ شعيب الأرناؤوط – ، وابن أبى شيبة فى "المصنف" =

فالمرتشى قد أفسد فى الأرض ، ودافع الرشوة قد أفسد فى الأرض ، نعم إنهما أفسدا وعطلا حقوق الخلق ، وأدت بهما الرشوة إلى أن يظلما عباد الله ، فجحدوا حقوقهم ؛ لأن هذه الرشوة التى سيطرت على قلوبهم ، وأصبحوا – والعياذ بالله – لا يؤدون عملاً ، ولا يقومون بواجب ، إلا أن يحصل على تلك الرشوة فى يديه ، فإنه بذلك يعمل ، ومن لم يقدم له الرشوة ، لا يمكن أن يقوم له بواجب ، ولا يمكن أن يؤدى عمله ، لفساد قلبه .

ومن الفساد فى الأرض ما يروجه البعض من الشائعات والأراجيف والأباطيل التى يقصدون بها ملء القلوب من الفتن والمصائب ، وشحن القلوب بالأحقاد والبغضاء على المجتمع المسلم ، فبعضهم – والعياذ بالله – همه وغايته أن يملأ قلوب الأمة حقداً على دينها ، وحقداً على أمنها ، وحقداً على ولاتها ، لا يبالى بذلك ؛ لأن هدفه وغايته أن يرى فى المجتمع تفككا ، وأن يرى فى المجتمع بعداً عن الهدى ، والواجب على المسلم تقوى الله فى كل أموره ، وأن يسعى فى جمع القلوب ، وتوحيد الصف ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

(٤/٤٤٥) ط : مكتبة الرشد – الرياض – الأولى – ١٤٠٩ هـ – ت/ كمال يوسف الحوت .

ومن أنواع الفساد – أيضاً – :

١- الابتزاز .

٢- المحسوبية .

٣- المحاباة .

٤- الوساطة .

٥- الاختلاس .

٦- الأعمال الإجرامية .

٧- غسيل الأموال وتهريبها .

٨- سرقة الآثار .

٩- تعاطى المخدرات .

١٠- التزوير .

١١- التزييف .

قد يمارس الناس الفساد فى الارض بعد إصلاحها ، كما فى قوله – تعالى –: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾(1).

لذلك أمر الله – تعالى – الناس بعدم الفساد فى الأرض بعد إصلاحها ، كما فى قوله – تعالى – : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(2) ، فالله يحب المؤمنين ولا يحب المشركين ، فلا تفسدوا فى الأرض بالكفر بعد أن أصلحها الله بالإيمان الذى أتى به الرسل ونزلت به الكتب ، ويؤكد هذا النص البليغ أن الأرض مخلوقة بنظام دقيق يكفل لها صلاحها ، وأن الإنسان هو الذي يفسدها .

ويصف الله – تعالى – الفاسدين بالخاسرين ، ويربط بين الفساد أو ممارسة الفساد ، وقطع صلة الرحم ، تلك التى أمر الله – تعالى – بأن توصل ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ

(1) سورة البقرة ، الآية (11) .

(2) سورة الأعراف ، الآية (56) .

وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾[1] أى : يقطعون صلة ذوى الرحم ، ويرتكبون الآثام والمعاصى فأولئك هم الخاسرون .

ومن مظاهر الفساد العديدة التى يذكرها القرآن الكريم على سبيل المثال لا الحصر؛ هلاك الحرث والزرع والنسل ، كما فى قوله – تعالى – : ﴿ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[2] ، فالله – تعالى – يقول إنه يكره الفساد وبالطبع لا يحبه ولا يحب المفسدين فى الأرض والذين يزداد عددهم فى هذه الأيام نظراً لبعد الناس عن حظيرة الإيمان وعن قيم إسلامنا الحنيف فى النزاهة وطهارة القلب وطهارة اليد والأمانة والصدق والوفاء والولاء والرغبة فى تعمير الأرض والأكل الحلال من خيراتها .

ومن أبشع مظاهر الفساد وأكثرها قسوة قتل النفس بغير حق كما فى قوله – تعالى – : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[3] .

---

(1) سورة البقرة ، من الآية (٢٧) .

(2) سورة البقرة ، من الآية (٢٠٥) .

(3) سورة المائدة ، من الآية (٣٢) .

فلنتق الله – ﷻ – فى مجتمعنا وفى وطننا ، ولنتذكر حديث النبى (ﷺ) : "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس"[(١)] وفى لفظ "الذين يصلحون ما أفسد الناس"[(٢)]. فبين النبى (ﷺ) أن هذا الدين بدأ غريباً فى أوله ، ثم إنه انتشر وعلا ، ثم سيعود غريباً كما بدأ ، لكنه أثنى على الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس ، أولئك البقية من أهل العلم والإيمان والبصيرة فى دين الله يصلحون ما أفسد الناس ، يصلحوا ما افسدوا من أعمال وأخلاق ، يصلحون ذلك بأن يبصروا الأمة ويدعوهم إلى الصراط المستقيم ، ويرشدوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، ويبعدونهم عن كل ما فيه هلاكهم وضررهم ، فهؤلاء ليسوا دعاة فتنة ولا دعاة فوضى ، ولكن دعاة رحمة ومحبة ومودة وجمع كلمة الأمة ، فهؤلاء هم الغرباء ، فما أحوجنا إلى أن نعود إلى حظيرة الإيمان ، وأن نتحلى بقيم إسلامنا الحنيف التى هى خير عاصم من الزلل والشطط والفساد والعدوان وسائر الرذائل والآثام .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى "المعجم الأوسط" (٣/٢٥٠) ط : دار الحرمين – القاهرة – ١٤١٥ هـ – ت/ طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسينى ، والهيثمى فى "مجمع الزوائد" (١/١٠٦) ط : دار الريان للتراث ودار الكتاب العربى – القاهرة ، بيروت – ١٤٠٧ هـ .

(٢) أخرجه الترمذى فى "سننه" (٥/١٨) . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.

سادساً : إعداد الدفاع العام

قال – تعالى – : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [1].

من الأشياء التى دعا إليها الإسلام وأكد عليها إعداد القوة والدفاع بما استطعنا وما أوتينا من قوة ضد أعداء الإسلام، الذين يريدون أن تكون كلمة الله هى السفلى وكلمتهم الباطلة هى العليا، ولكن سيأبى الله ذلك بقوته وحوله، وسينصر دينه بأوليائه وحزبه، فأمرنا أن نعد لهم ما استطعنا من قوة فى الجهاد باللسان والمال والعتاد ، فإننا بذلك نرضى ربنا ، ونذب عن ديننا ، ونحمى أنفسنا وأهلينا وديارنا ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [2]، فنذب عن ديننا من يريد القضاء عليه ومن يدعو إلى التحلل والتخلص منه ، فإن الدين رأس الفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة ، : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (٦٠) .

(٢) سورة الحج ، من الآية (٤٠) .

ٱسۡتَطَعۡتُم ﴾ من قوة الحجة والبرهان ورد شبههم الباطلة بالتفنيد وهدم الأركان ، من قوة التدريب والتمرن على المعدات الحربية والتعلم لطرق الأساليب الحربية التى تلائم العصر الحاضر .

عن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله (ﷺ) وهو على المنبر يقول : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾ ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى[١].

وقال (ﷺ) : **"ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا ، ومن ترك الرمى بعدما علمه رغبة عنه فإنها نعمة تركها ، أو قال كفرها "**[٢].

وعن سلمة بن الأكوع – رضي الله عنه – قال : مر النبى (ﷺ) على قوم ينتضلون – أى يترامون أيهم يغلب – فقال : **"ارموا بنى إسماعيل ، وإسماعيل أبو العرب فإن أباكم كان رامياً ، وأنا مع بنى فلان ، فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال النبى (ﷺ) : ما لكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمى وأنت معهم؟ فقال**

---

(١) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : الإمارة – باب : فضل الرمى والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه – ح (١٩١٧) .

(٢) أخرجه النسائى فى "السنن الكبرى" (٣٩/٣) ط : دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى – ١٤١١هـ – ١٩٩١م – ت/ د: عبد الغفار سليمان البندارى وسيد كسروى حسن .

النبـى (ﷺ) : ارمـوا وأنا معـكـم كـلـكـم "[1].

وقـال (ﷺ) : "سـتفـتـح عـليكـم أرضـون ويـكـفـيكـم اللّٰه ، فـلا يـعـجـز أحـدكـم أن يـلـهـو بأسـهـمـه"[2] .

فبين النبى (ﷺ) فى هذا الحديث الأخير أنه لا ينبغى ترك الرمى حتى ولو لم يكن إليه حاجة .

وقال (ﷺ) : "مـن بلـغ بـسـهـم فى سـبـيـل اللّٰه – يـعـنـى مـن رمـى فـأصـاب – فـهـو لـه درجـة فى الجـنـة "[3].

والرمى الذى فسر به النبى (ﷺ) – الآية يشمل كل رمى فى كـل زمان ومكان بحسبه ، فكما أن الرمى فـى وقتـه بالنبـل والمنجنيـق وغيرهما ، فالرمى المناسب فى هذا الوقت يكون بالمدافع وغيرها علـى اختلاف أنواعها والقنابل والصواريخ ؛ لأن النبى (ﷺ) أطلق الرمى ولـم يعين ما يرمى به .

---

(١) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الجهاد والسير – باب : التحريض على الرمى – ح (٢٨٩٩) .

(٢) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : الإمارة – باب : فضل الرمى والحث عليه – ح (١٩١٨) .

(٣) أخرجه ابن حبان فى "صحيحه" (٤٧٦/١٠) ، وأبو داود فى "سننه" (٢٩/٤) .

وإن مما جاء به الإسلام من الحث على تعلم الرمى أن أباح أخـذ الرهان عليه، فيجوز للإنسان أن يرامى صاحبه على عوض من المال أو نحوه ، لما فى ذلك من الحث والإغراء على تعلم الرمى[1] .

وإذا رجعنا إلى الآية الكريمـة : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ... ﴾ نجد أن الله – تعالى – يأمرنا بإعداد القوة بكل شيء نستطيعه من أسباب القوة ، فأعدوه صغيراً كان أو كبيراً ، ما دمـتم تسـتطيعونه فعليكم أن تعدوه ، : ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ فالخيل تدخل فى القوة ، فلماذا خصها بالذكر ؟ نقول : خصها بالذكر لحكمة وهى : أن نعتنى بأهم أسباب القوة ، فالخيل فى عهد النبى (ﷺ) هى أهم أسباب القـوة ، فمـا دمنا نستطيع أن نوجد أهم أسباب القوة فإن علينا أن نعتنى بها .

فى غزوة بدر لم يكن مع النبى (ﷺ) إلا فارس واحـد ، وقيـل : اثنان ، وأكثر الأقوال أنهم ثلاثة ، وقيل : لم يثبت أو لم يصح أنه وجـد فارس إلا المقداد وحده[2] ، هذا هو قدر استطاعتهم ، وكان مع قـريش مائة فارس ، والخيل فى ذلك الوقت مثل الطائرات فى زماننا هذا ، فنحن

---

(١) وجوب إعداد القوة للأعداء – محمد بن صالح العثيمين – مقال على شبكة الألوكة .

(٢) الكامل في التاريخ – لأبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى (٢/١٦) ط : دار الكتب العلمية – بيروت – الثانية ١٤١٥ هـ – ت/ عبد الله القاضى .

مطالبون بأن نعد ما نستطيع .

والنبى (ﷺ) أعد أسباب القوة ، وفعل الأسباب الموجودة فى عصره ، والتى استطاع أن يفعلها ، فلبس الدرع يوم أحد ، وحفر الخندق يوم الأحزاب ، وأخذ السلاح وأعد الجنود ، وأعد القادة ورباهم ، وأعد الأموال ، فكان يعمل بالأسباب الممكنة فى عصره ، لكن ينبغى أن نعلم أن الاعتماد لا يكون على الأسباب إنما على مسبب الأسباب – سبحانه وتعالى – .

وعلينا أن نعلم حقيقة مهمة وهى : أنه لم يلتق ولم يحصل يوم من الأيام أن كانت قوة المسلمين أقوى من قوة الكافرين ، فالكافرون دائماً هم الأكثر ، والكافرون دائماً هم الأقوى من ناحية العدة والعتاد ، ولكن جانب الإيمان يرجح المسلمين على عدوهم ، ولذلك كان عمر – رضي الله عنه – إذا استبطأ النصر من قادته كتب لهم: "إنا لا نقاتل الناس بعدد ولا عدة إنما نقاتلهم بهذا الدين ، فلعلكم أحدثتم أمراً ، فراجعوا أنفسكم..."(١).

ومن إعداد العدة : ألا يغفل المسلمون عن معرفة عدوهم وعن قدراته : كما فعل النبى (ﷺ) يوم بدر ، عندما أخذ السقاة الذين جاءوا يستقون الماء لقريش ثم سألهم : كم عدد قريش ؟ كم ينحرون من الجزر

---

(١) تاريخ الإسلام – للإمام الذهبى (٤٨١/٢) ط : دار الكتاب العربى – لبنان – بيروت – الأولى ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م – ت/ د: عمر عبد السلام تدمرى .

؟ كم معهم من الخيل؟ من معهم من صناديد قريش ؟ فأجابوا : معهم فلان وفلان ، وينحرون من الجزر كذا وكذا ، فقال النبى (ﷺ) : **"القوم ألف كل جزور لمائة"**[1] ، فأعد لذلك عدته ، فهو واجب من واجبات المسلمين ، فلا يستهينوا بعدوهم ، ومع ذلك نتأمل قول النبى (ﷺ) : **"لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف"**[2].

ولابد أن ندرك فى هذا المبحث بالذات أن القتال فى الإسلام جعل لغرضين أساسيين :

الغرض الأول : الدفاع عن النفس عند الاعتداء عليها ، والدفاع عن الأرض ، والبلاد التى يعيش المسلمون فيها .

الغرض الثانى: الدفاع عن الدعوة الإسلامية ، والتعاليم الإلهية ، حماية للحاملين مشعلها ، وإفساح الطريق أمام الدعوة ورسالة الحق.

ومن هذين الغرضين ندرك أن القتال فى الإسلام لم يشرع لتوسيع سلطان أو الغلبة والقهر ، أو استعباد الشعوب واستنزاف خيراتها .

ولو ترك المشركون يعتدون على المسلمين ، ويقاومون الدعوة ،

---

(١) بنحوه أخرج الإمام أحمد فى "مسنده" (١/١١٧) .

(٢) أخرجه البخارى فى "صحيحه: كتاب : التمنى – باب : كراهية لقاء العدو – ح(٧٢٣٧).

ويصدون الناس عن الدخول فى دين الله ، ولم يشرع القتال فى الإسلام، لطغى الباطل على الحق ، وتضررت البلاد ، وطمست معالم الدعوة .

إن الأمر بإعداد القوة يجب أن يستمر ، ولا يتوقف ، ورســـول الله (ﷺ) لم يتوان فى إعداد المسلمين إعداداً يتفق مع بناء دولة الإســـلام ، وكان المسلمون أقوياء فى عقيدتهم ، وأقوياء فى إيمانهم ، وأقوياء فى فكرهم وثقافتهم وأخلاقهم وسلوكهم .

نسأل الله العظيم أن ينصرنا على أعدائنا ، وأن يمدنا بالقوة مـــن عنده ، وأن يجعلنا من المتبعين لهدى حبيبه (ﷺ) .

سابعاً : الرقابة الأخلاقية

قال – تعالى – : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ (1).

لأخلاقنا الإسلامية خصائص مميزة تنفرد بها ، وتجعلها ذات شخصية مستقلة وطبيعة خاصة ، فهى أخلاق تستمد مصدرها من كتاب الله – تعالى – ، وسنة النبى (ﷺ) . ومادامت أخلاقنا الإسلامية تقوم على القرآن والسنة ، فهى بذلك تتسم بالشمول والصلاحية للتطبيق فى كل زمان ومكان ، كما أنها تتسم بأنها قائمة على الإقناع العقلى والوجدانى معا ، وغير ذلك من الخصائص .

الأخلاق الإسلامية تجعل الإنسان مسئولاً عما يصدر منه فى كل جوانب الحياة ، سواء أكانت هذه المسئولية مسئولية شخصية ، أم مسئولية جماعية ، ولا تجعله اتكاليا لا يأبه بما يدور حوله من أشياء ، وهذه – أيضاً – خاصية من خصائص أخلاقنا انفردت بها الشريعة الغراء .

ونعنى بالمسئولية الجماعية (العامة) : تلك المسئولية التى

---

(1) سورة النساء ، من الآية (83) .

تراعى الصالح العام للناس ، فلا يكون الرجل إمعة متكاسلاً ، يقول النبى (ﷺ) : **"لا تكونوا إمعة ، تقولون : إن إحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا فلا تظلموا "**[1].

والرقابة : تعنى مراقبة المرء لجانب مولاه – سبحانه – فى جميع أموره، وعلى هذا فإن الرقابة فى أخلاقنا الإسلامية لها مدلولها المستقل والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى ، حيث تكون رقابة خارجة من الغير تتمثل فى رقابة نابعة من التربية الإسلامية الصحيحة ، ومن إيقاظ الضمير ، فإذا كان المرء يعلم أن الله معه ، وأنه مطلع على حركاته وسكناته ، فإنه يكون رقيباً على نفسه قبل رقابة الغير عليه .

ومن هذه الرقابة التى نبه عليها القرآن الكريم : عدم نشر جو الهزيمة أو النفاق ومراجعة المصدر الرسمى ، وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى "سننه" كتاب : البر والصلة – باب : ما جاء فى الإحسان والعفو – ح (٢٠٠٧) وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

قال ابن كثير – رحمه الله – عند هذه الآية :

"إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها ، فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة ، وقد قال مسلم فى مقدمة صحيحه ... عن أبى هريرة – ﷺ – عن رسول الله (ﷺ) قال : "**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**"[1] ، وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة – ﷺ – أن رسول الله (ﷺ) نهى عن قيل وقال " أى : الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبيين..." [2] أ هـ .

فهذا تأديب من الله – ﷻ – لعباده ، وأنه ينبغى لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة فيما يتعلق بأمن وسلامة البلاد ، أو بالخوف الذى فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة الأخبار ، فهذا فيه إفشاء لأسرار المسلمين ، وضرر كبير عليهم، ولو أن المنافقين فوضوا هذه الأسرار إلى الرسول (ﷺ) وأعيان المسلمين لفهم هذه الأسرار أهل الفقه فى الدين والبصيرة فى الشريعة ، وليس الدهماء الجهلاء ، ولا العامة البسطاء ، ولبقيت أمور الخاصة سراً للمصلحة الكبرى ، ليتولى الأمور أهلها ، ولا يدخل من ليس أهلاً فى القضايا الخطرة .

---

(١) أخرجه مسلم فى "صحيحه" باب : النهى عن الحديث بكل ما سمع – ح (٥) .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٣٠/١ وما بعدها) بتصرف .

فالواجب اتخاذ هذه الآية منهاجاً ونبراساً فى التعامل وقت الأزمات والفتن ، فإن فى تأملها طمأنينة النفس والأمان ، والعمل بها قوة وعز لأهل الإيمان ، فمتى ما حرص المسلمون على عدم إذاعة الإشاعات ، وانتهجوا منهج الرد لأولى الأمر والخبرة ووحدوا صفهم مع قيادتهم تحقق لهم – بإذن الله – ما يصبون إليه وما يأملونه .

وقد قال أحد العلماء : " لأن يسكت العاقل مختاراً فى وقت يحسن السكوت فيه خير من أن ينطق مختاراً فى وقت لا يحسن الكلام فيه ".
والله أعلم.

ثامناً : تجنب موالاة الأعداء أو التعامل معهم

قال – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1].

وقال – تعالى – : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية (١) .

وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(١).

وقال – تعالى – : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾(٢).

إن من نواقض الإسلام الخطيرة ، ومبطلاته الكبيرة ، موالاة أعداء الإسلام، فهى محادة لرب العالمين ، وخروج عن شرعة سيد المرسلين ، وخذلان لإخوة العقيدة والدين . لم يُبتل الإسلام فى عصر من عصوره بأشد ولا أخطر من معاداة المسلم لأخيه المسلم ، وموالاة الكافر ومشايعته ومصانعته ، والوقوف معه فى خندق واحد لضرب الإسلام وإذلال أتباعه ، وانتهاك كرامتهم.

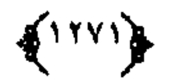
لقد حذر الإسلام من موالاة الكافرين ومظاهرتهم ، سيما على المسلمين ، وبيّن الشارع الحكيم أن فى ذلك خروج عن الدين مهما كان الدافع لذلك .

تعريف الموالاة :

---

(١) سورة الممتحنة ، الآيتان (٨ ، ٩) .

(٢) سورة المجادلة ، من الآية (٢٢) .



يقول ابن تيمية – رحمة الله – : "(الولاية) : ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل العداوة : البغض والبعد ، وقد قيل : إن الولى سمى ولياً من موالاته للطاعات ؛ أى : متابعته لها ، والأول أصح، والولى : القريب، فيقال : هذا يلى هذا ؛ أى : يقرب منه ، ومنه قوله (ﷺ) : "ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر " أى : لأقرب رجل إلى الميت"[1] أ هـ .

ومما يدل على خطر هذا الأصل وغفلة الكثير عنه – إلا من رحم الله – ، ما كان يفعله رسول الله (ﷺ) ، حيث كان رسول الله يبايع أصحابه على تحقيق هذا الأصل العظيم ، فعن جرير بن عبد الله البجلى – ﷺ – قال : أتيت النبى (ﷺ) وهو يبايع ، فقلت : يا رسول الله : ابسط يدك حتى أبايعك واشترط على فأنت أعلم ، قال : "**أبايعك على أن تعبد اللّه ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتناصح المسلمين ، وتفارق المشركين**"[2].

وما أجمل تلك العبارة التى سطرها أبو الوفاء بن عقيل قائلاً : " إذا أردت أن تعلم محل الإسلام من أهل الزمان ، فلا تنظر إلى زحامهم فى أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم فى الموقف بلبيك ، وإنما انظر إلى

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/١٦١)، والحديث أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب: الفرائض – باب : ميراث الولد من أبيه وأمه .

(٢) أخرجه النسائى فى "السنن الكبرى" (٤/٤٢٨) .

مواطأتهم أعداء الشريعة"[1].

إن شجرة التوحيد والإيمان لابد لها من أصول ، وفروع ، وثمار ، ومن أعظم مقتضياتها وأوجب حقوقها ولوازمها أن يوالى العبد فى الله ، ويعادى فيه، وأن يوالى المؤمنين ، وأن يعادى الكافرين ، فإن من والى عدو الله لا يمكن أن يكون محققاً لشهادة أن لا إله إلا الله ، ولا آتياً لمقتضياتها ، فالله – تبارك وتعالى – يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ فانظر : كيف قال (عدوى وعدوكم) فهل هناك أعظم فخراً من أن يكون اسمك مقترناً بالله – ﷻ – ، فيكون عدو الله عدواً لك ، ويكون حبيب الله حبيباً لك .

والموالاة لها صور كثيرة ؛ منها :

١- **الحب والمودة** : قال – تعالى – : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية – لأبى عبد الله محمد بن مفلح المقدسى (٢٥٥/١) ط : مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م – الثانية – ت/ شعيب الأرناؤوط وعمر القيام .

كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾ فالمؤمنون الصادقون يبغضون الكافرين وإن كانوا أقرب الأقارب إليهم ، وعلى هذا فيجتمع فى قلب المؤمن المحبة الفطرية الطبيعية والبغض الدينى ، وقد كان النبى (ﷺ) يحب أبا طالب لقرابته ولنصرته له وهو يبغضه لكفره ، ولهذا كان حريصاً على هدايته ولكن الله – سبحانه وتعالى – بحكمته لم يوفقه للإيمان ، لأنه – تعالى – أعلم بمن هو أهل لذلك .

٢- **النصرة** : قال – تعالى – : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (١) .

وقال – تعالى – : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ (٢) .

وعن جبير بن مطعم – رضي الله عنه – أن رسول الله (ﷺ) قال : "ليس منا

(١) سورة النساء ، الآية (٧٦) .

(٢) سورة الأنفال ، من الآية (٧٢) .

من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية"(1).

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله (ﷺ) قال : **"من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات ، مات ميتة جاهلية ، ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية ، أو ينصر عصبية فقتل ، قتل قتلة جاهلية"(2).**

٣- **التولي العام واتخاذهم أعوانا وأولياء ، وقد نهى الله عن ذلك ، فقال :** ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (3) .

قال ابن جرير – رحمه الله – في تفسيرها :

---

(1) أخرجه أبو داود في "سننه" (٣٣٢/٤) .

(2) أخرجه مسلم في "صحيحه" كتاب الإمارة – باب : وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة – ح (١٨٤٨) .

(3) سورة آل عمران ، الآية (٢٨) .

" من اتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم ويظاهرون على المسلمين ، فليس من الله فى شىء؛ أى : قد برئ من الله وبرئ الله منه ، بارتداده عن دينه ودخوله فى الكفر ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ أى: إلا أن تكونوا فى سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة ، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ، ولا تعينوهم على مسلم بفعل "[1].

وقال – تعالى – : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2]

قال ابن جرير فى تفسيرها :

" من تولى اليهود والنصارى من دون المؤمنين فإنه منهم ، أى : من أهل دينهم وملتهم ، فإنه لا يتول متول أحداً إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راض ، وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه وصار حكمه حكمه "[3] أ هـ .

---

(١) تفسير الطبرى (٣/٢٢٨) .

(٢) سورة المائدة ، من الآية (٥١) .

(٣) تفسير الطبرى (٦/٢٧٧) .

٤- **الركـون إلـيهم** : قـــال – تعــالى – : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [١]

قال القرطبي – رحمه الله – :

"الركون حقيقته : الإستناد والاعتماد ، والسكون إلى الشيء والرضا به".

وقال قتادة : معنى الآية : لا تودوهم ولا تطيعوهم .

وقال ابن جريج : لا تميلوا إليهم .

وهذه الآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهــل البــدع وغيرهم، فإن صحبتهم كفراً أو معصية؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة ، كما قيل:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدي"[٢]

(١) سورة هود ، الآية (١١٣) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/١٠٨) .

٥- اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين :

قال – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١)

نزلت هذه الآية فى أناس من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين ، ويواصلون رجلاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والجوار ، فأنزل الله هذه الآية تنهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم(٢) .

٦- مجالستهم والدخول عليهم وقت استهزائهم بكتاب الله :

قال الله – تعالى – فى النهى عن ذلك : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى

---

(١) سورة آل عمران ، الآية (١١٨) .

(٢) أسباب النزول – لأبى الحسن على بن أحمد بن محمد بن على الواحدى النيسابورى (١٢٠/١) ط : دار الإصلاح – الدمام – الثانية – ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م – ت/ عصام بن عبد المحسن الحميدان .

ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (١)

قال ابن جرير – رحمه الله – :

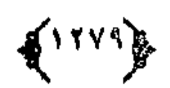
"قوله (إنكم إذا مثلهم) أى : إنكم إذا جالستم من يكفر بآيات الله ويستهزئ بها وأنتم تسمعون فأنتم مثلهم إن لم تقوموا عنهم فى تلك الحال ، لأنكم قد عصيتم الله بجلوسكم معهم وأنتم تسمعون آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، وفى الآية دلالة واضحة على النهى عن مجالسة أهل الباطل من كل نوع من الكفرة والمبتدعة والفسقة عند خوضهم فى باطلهم "(٢) أ هـ .

٧- **التشبه بهم فى الملبس والمظهر وغيرهما :**

فإن التشبه بهم فى الملبس والمظهر وغيرهما يدل على محبة المتشبه به؛ ولهذا قال النبى (ﷺ) : "من تشبه بقوم فهو

(١) سورة النساء ، من الآية (١٤٠) .

(٢) تفسير الطبرى (٥/٣٣٠) .



منهم"[1].

فيحرم التشبه بالكفار فيما هو من خصائصهم ومن عاداتهم وعباداتهم ، وسمتهم وأخلاقهم .

وهناك صور آخرى[2] ، كالتسمى بأسمائهم ، وغير ذلك من المظاهر والصور.

فلنعلم أن الله – سبحانه وتعالى – أوجب معاداة أعداء الإسلام وحرم موالاتهم بأى صورة من صور الموالاة ، وشدد فيها ، حتى إنه ليس فى كتاب الله – تعالى – حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد، وتحريم ضده .

ولقد أحسن العلامة ابن القيم – رحمه الله – حيث قال فى نونيته المشهورة:

أتحب أعداء الحبيب وتدعى … حبا له ما ذاك فى إمكان

---

(١) أخرجه أبو داود فى "سننه" (٤٤/٤) وصححه الشيخ الألبانى فى "صحيح الجامع" حديث رقم (٦١٤٩) .

(٢) للاستزادة ينظر : الولاء والبراء فى الإسلام – محمد بن سعيد القحطانى .

وكذا تعادى جاهداً أحبابـــه   أين المحبة يا أخا الشيطان[1]

فاللهم أعز الإسلام والمسلمين ، واخذل أعداء الدين ، ورد كيدهم فى نحورهم يا رب العالمين .

(١) شرح قصيدة ابن القيم – أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢٦٤/٢) ط : المكتب الإسلامى – بيروت – الثانية ١٤٠٦ هـ – ت/ زهير الشاويش .

القسم الثانـــى

العلاقـــات الخارجيـــة

أولاً : الاهتمام بالسلام العام

السلام أمنية غالية ورغبة أكيدة ، تتطلع إليه البشرية فى تلهـف وشوق ، ولا يدرك قيمة السلم الحقيقية إلا من عاش الحرب واصـطلى بنارها ، ورأى وسائل الدمار والخراب ، وهى تنشر الرعب بين الأبرياء، وتهدم المنشآت وتهلك الحرث والنسل .

السلام هو ضالة الإنسان التى يسعى لتحقيقها فــى كــل مراحــل حياته، والفرد والجماعة فى هذا سواء ، ولعــل الأيـــام التـــى تعيشـــها الإنسانية الآن ، والتى فقدت فيها الأمن والطمأنينة ، خير دليل علـــى أن الحياة المادية مهما ارتفعت فلن تعوض الإنسان عما يفتقده من نفسه إذا حرم من نعمة السلام .

والدارس للقرآن الكريم يلمس إلى أى حد عُنى هذا الكتاب الخالــد بموضوع السلام ، فأصدر – سبحانه وتعالى – من التشريعات ما يثبــت دعائمه، وعبر عنه بما يفيد أنه النعمة العظمى التى يلقاها عباده المتقون بعد انتهاء ما حدد لهم من آجال فى دار الكدح والفناء[1].

---

(١) تبويب آى القرآن من الناحية الموضوعية – د/ أحمد إبراهيم مهنا (٦٥/٤) ط : مطابع دار الشعب – القاهرة .

ودين الإسلام الذى ينشد السلام ويؤمن به ويحض عليه ، وينادى بتعميمه لا يؤمن به إيمان من يتحدث عنه ويردده للتمويه وذر الرماد فى الأعين ، بل هو عنده عنوان وشعار يردده المسلمون فى العبادة وفى التحية وفى كل آن وفى كل مكان .

السلام فى عقيدة التوحيد أن لا أحد يهين كرامتك ويستعبدك ، فتكون حراً – عبداً لله خالق الكون وحده – ، كريماً مكرماً ، عزيزاً ، تشعر بأنك مخلوق لا يستخف ولا يستعبد بألوان من الاستغلال والاستعباد[1] .

السلام فى كل شيء من أحكام الشريعة الغراء ؛ فى تحريم الخمر ومنع المسكرات ، فى الزواج والسكينة ، فى صلة الرحم والجار ، وزيارة المريض ، والإنفاق على الفقير ، فى حرب الإسلام لتحرير العباد، وغير ذلك .

ورد لفظ السلام وما اشتق منه فى كتاب الله – تعالى – فى أربع وأربعين آية ، منها خمس مدنية والباقيات مكية ، فى حين لم يرد لفظ الحرب إلا فى ست آيات كلها مدنية ، وهذا يدل على أن اهتمام القرآن بالسلام كان يأتى فى الدرجة الأولى مع ما فى ذلك من إشارات إلى وضعية المسلمين قبل تأسيس الدولة فى مكة وما تقتضى من صبر

---

(١) مفهوم السلام فى الإسلام – محمد عز الدين المعيار – موقع الألوكة

ومسالمة فى انتظار قيام الدولة فى يثرب ، وما يتطلب ذلك من قوة ومنعة .

قال – تعالى – : ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (١).

معنى الآية : إن مال الكفار للمصالحة والسلم فمل إلى ذلك ، صالحهم فيما فيه خير للمسلمين ودفع للحروب ، وثق بربك فيما عاهدت ، وتوكل عليه فيما عاقدت ، فإنه سوف يؤمنك مما تخاف ويحميك مما تحذر ؛ لأنه سامع الأقوال ، عالم الأحوال ، المطلع على النيات ، العليم بالخفيات ، يعلم من وفىّ ومن غدر ، ومن صدق ومن خان(٢) .

إن العقل الإنسانى ، وكل أنصار السلام ومحبيه ، مهما بذلوا من جهد ، لا يستطيعون أن يقدسوا السلام كما قدسه الإسلام ؛ تشريعاً وتنفيذاً ، وعقيدة ، فلقد جعل الإسلام السلام فى قمة وذروة القدسية والإجلال ، فجعله من أسماء الله الحسنى ، قال – تعالى – : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ

---

(١) سورة الأنفال ، الآية (٦١) .

(٢) التفسير الميسر – د/ عائض القرنى (ص/٢٢٥) ط : مكتبة العبيكات – الرياض – الثانية – ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .

ﭐلرَّحِيمُ ﴾ (1).

فجعل الله السلام من أسمائه المقدسة ، ليكون السلام معشوق الإنسان المؤمن ، وهدفه فى الوجود .

ثم أتى سيدنا محمد (ﷺ) ، فزاد أمر السلام توضيحاً وتبييناً ، فقال: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام"(2).

ثم أتى القرآن ثانياً ليجعل السلام يدخل فى صفة مهمة من أوصاف الجنة والنعيم ، فقال – تعالى – : ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (3).

ولم يكتف الإسلام بذلك ، بل أصدر القرآن أمره الإلهى للمؤمنين ، قائلاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ (4).

وإذا نظرنا إلى الناحية التطبيقية العملية ؛ نجد أن النبى (ﷺ)

---

(1) سورة الحشر ، من الآية (٢٣) .

(2) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : المساجد ومواضع الصلاة – باب : استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته – ح (٥٩١) .

(3) سورة يونس ، الآية (٢٥) .

(4) سورة البقرة ، من الآية (٢٠٨) .

وأصحابه الكرام قدموا القدوة البارزة فى إقامة السلام ، والمثال الحى فى تعميم الإحسان ، والحب والإخاء ، فى المجتمع العالمى الإسلامى ، واستطاع سيدنا محمد (ﷺ) وأصحابه فى أقل من قرن ، أن يوحدوا نصف العالم القديم ، من حدود فرنسا إلى الصين ، فى ظلال من العلم والحضارة ، والأخوة الروحية ، والمساواة بين الشعوب على اختلاف ألوانها ، وأديانها ، واستطاعوا أن يرفعوا الحدود السياسية الجغرافية ، وأن يطبقوا العدالة الاجتماعية ، والقضائية ، وغيرهما، ويعيدوا للإنسان عملياً حقوقه المغتصبة ، ولا ينكر ذلك إلا جاحد ، أو متجاهل مكابر ، لذلك نبغ فى الإسلام عباقرة العلماء والقادة على اختلاف أقطارهم وألوانهم ، وعم الرخاء ينادى : هل من فقير فنغنيه ؟ هل من أعزب حتى نزوجه ؟ هل من كذا هل من كذا ؟

إن كل وسائل السلام فى القرن العشرين ؛ من عصبة وهيئة الأمم ، إلى مجلس الأمن ، إلى محكمة العدل والمعاهدات الدولية ، لم تنجح فى إطفاء الحروب الصغيرة ، فضلاً عن الكبيرة ، فكيف بالحروب النووية ؟!

إن المؤسسات الدولية بنيت على وسائل لا يمكن أن تحقق سلاماً صغيراً، فضلاً عن السلام العالمى ، ولو دُرس الإسلام لتوصل كوكبنا إلى أكثر من سلامه وأمنه .

إن بناء السلام المضمون قد وضحه القرآن ، بعد أن أرسى قواعد

الأخوة والمحبة العالمية[١] .

وما قضية فلسطين منا ببعيد ، وأمثالها كثير .

ألم يُجرد شعب من وطنه ، وبقيادة وتخطيط الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانية ومن ورائهما الحلف الأطلسى ولمصلحة الصهيونية العالمية ؟! وتحت سمع وبصر كل المنظمات العالمية للسلام !! ومع ذلك لا يزال العدوان مستمراً ، ولا تزداد قوى الظلم والاستعمار على الشعب الفلسطينى إلا اتساعاً وتفاقماً ، وعلى الرغم من وجود هذه المنظمات العاجزة ماذا نشهد ؟ إننا نرى أن إسرائيليا واحداً يُقتل ، فنرى دنيا أمريكا تقوم ولا تقعد ، ومعها كل حلفائها ، بينما نرى الشعب الفلسطينى بأكمله يُعمل على إبادته بعد إجلائه عن أرضه ، فلا يتحرك ساكن[٢] ، وصدق من قال :

قتل امرئ فى غابة ... جريمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن ... مسألة فيها نظر

والخلاصة : أن الإسلام شريعة السلام ودين المرحمة ، ما فى ذلك

---

(١) السلام العالمى فى الإسلام – مقال على شبكة الإنترنت .

(٢) للاستزادة ينظر كتاب : مفهوم السلام فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف – للدكتور/ الطيب البوهالى – ط : دار السلام للطباعة والنشر – القاهرة – الأولى – ٢٠١٠م .



من شك ، ولا يخالف ذلك إلا جاهل بأحكام الإسلام أو حاقد على نظامه أو مكابر لا يقتنع بدليل ، بل اسم الإسلام نفسه مشتق من صميم مادة السلام . وليست فى الدنيا شريعة دينية ولا نظام اجتماعى ، فرض السلام تدريباً عملياً واعتبره شعيرة من شعائره ، وركنا من أركانه ، كما فرض الإسلام رياضة النفس على السلام ، ومن يراجع آيات القرآن الكريم يدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن الأصل فى التعامل مع غير المسلمين هو تقديم السلام على الحرب ، واختيار التفاهم لا التصارع .

بل كان النبى (ﷺ) يكره كلمة حرب ، ولا يحب أن يسمعها ، ففى الحديث أن النبى (ﷺ) قال : "**أحب الأسماء إلى الله : عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها : حارث وهمام ، وأقبحها : حرب ومرة**" .

وكان النبى (ﷺ) – يغيّر من اسمه حرب إلى اسم آخر أحسن وأجل ، فعن هانئ بن هانئ ، عن على – ﷺ – قال : "لما ولد الحسن سميته حرباً ، فجاء رسول الله (ﷺ) فقال : "**أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟ قال : قلت : حرباً. قال : بل هو حسن**" ، فلما ولد الحسين سميته حرباً ، فجاء رسول الله (ﷺ) فقال : "**أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟" قال : قلت حرباً . قال** : "**بل هو حسين**"، فلما ولد الثالث سميته حرباً ، فجاء النبى (ﷺ) فقال : "**أرونى ابنى، ما سميتموه ؟" قلت : حرباً . قال** : "**بل هو محسن**" ، ثم قال: "**سميتهم**

بأسماء ولد هارون : شبّر وشبير ومشبّر"[1].

بهذا عمل الإسلام على إقامة السلم فى داخل المجتمع ، بتربية النفوس على الخلق الكريم والتعاون الإسلامى الجميل ، وبمنع ما يؤدى إلى اضطراب الأمن واختلال النظم واشتجار العداوات ، وثورة النفوس والأفكار ، وهذا هو الأساس الصحيح للدعوة إلى السلم ومنع الحروب والفتن .

إن النفس التى تطمئن إلى حقها ، وتبتعد عما يثير أعصابها ، هى نفس لا تعرف للحرب لذة ، ولا تستسيغ للعدوان طعماً ، أما النفوس التى أمضّها الظلم، وأرقها القلق ، أما الأعصاب التى تعيش فى جو مضطرب لا تستقيم فيه الأوضاع ، أو جو تستثار فيه الغرائز وتوقظ الشهوات ، فهى التى تستجيب للثورة وتفكر فى الفتنة ، إن المحروم والجائع والمظلوم والمضطهد .... هؤلاء هم وقود كل حرب تقع ، ولسان كل ثورة تشتعل ! [2].

أما نظام الحرب فى الإسلام فلا ريب فى أنه يقوم على النظرة التى

(١) أخرجه ابن حبان فى "صحيحه" (٤١٠/١٥) ، والحاكم فى "المستدرك" (١٨٠/٣) ، والبيهقى فى "السنن الكبرى" (١٦٦/٦) ، والبخارى فى "الأدب المفرد" (٢٨٦/١) .

(٢) نظام السلم والحرب فى الإسلام – د/ مصطفى السباعى (ص/١٦) كتاب منشور على الشبكة العنكبوتية .

تقوم عليها كل شريعة واقعية أقرت فكرة الحرب ، وهى أن فى الناس من لا تردعهم التربية ولا القانون عن العدوان والطغيان ، وأن فى الأمم من تغريها قوتها وضعف جيرانها بالعدوان والاستعمار ، لا جرم إن كان من الخير أن يشرع استعمال القوة حينئذ لحملة السلام من أعدائه فى الداخل والخارج ، وهذا ما رمى إليه الإسلام حين أقر استعمال القوة[1] .

(١) المرجع السابق (ص/١٨) .

ثانياً : الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

قال – تعالى – : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (١)

وقال – ﷻ – : ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢)

إن الأصل فى الدعوة إلى الله – تعالى – أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن ، وهذا الأسلوب مطلوب فى حق الكافرين فضلاً عن عصاة المؤمنين ، وهذه الآية الأولى من أجمع ما ورد فى كيفية الدعوة إلى الله – ﷻ – وأساليبها ، هذه الآية تبتدى بعرض القضية والموضوع ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ هذه هى قضية الدعوة والإيمان والتوحيد ، إلى الله ورسوله ، إلى دين الحق ؛ الإسلام ، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ومن عبادة العباد والأوثان والأهواء إلى عبادة الله

---

(١) سورة النحل ، من الآية (١٢٥) .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية (٤٦) .

الذى لا إله إلا هو .

إن هذه القضية تمثل القضية الكبرى فى الكون والحياة ، القضية التى من أجلها بعث الله الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمد (ﷺ) ، إنها تمثل الهدف الربانى الثابت الأول فى حياة المسلم وفى مسيرة الدعوة الإسلامية .

إن التوجيه فى هذه الآية هو للداعية العامل ، المجاهد الذى عرف دربه وهدفه ، وعرف عهده مع الله – تعالى – ليكون الحافز الدائم ليمضى على الدرب يبلغ رسالة الله ، فمن أجل ذلك التوجيه الربانى ﴿ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ ، هذه هى القاعدة الأولى الهامة ، أن تكون الدعوة بالحكمة أولاً ، باختيار الأسلوب الأمثل الملىء بالحكمة لتبليغ رسالة الله واضحة جلية دون مواربة ولا تنازلات ولا مساومات، والحكمة هى فى بعض الآيات تعنى : ما أنزل من عند الله ، وفى أخرى يكون معناها الجامع : فقه الموهبة المؤمنة والمسئولية والأمانة .

والموعظة الحسنة : هى أن تبين لهم عظمة الإسلام والإيمان ، هى الوضوح فى الكلمة المؤمنة الطيبة ، والصدق فيها ، حتى لا يكون هنالك مجال لسوء الفهم أو التغرير .

فليس من الحكمة فى شىء أن نصور الإسلام أنه دين المساومة والتنازلات كى نركن إلى من لا يؤمن بالله ، أو انحرف عن دين الله ، أو دعا إلى غير الله ، أو افترى على الله كذبا وادعى باطلاً أو أخفى وبدّل وغيّر ، ولا هو من الحكمة أن نخفى ما فرضه الله نصاً صريحاً فى

الكتاب والسنة من عدم موالاة المشركين والكافرين والمنافقين .

إن أساس الحكمة والموعظة الحسنة أن نبلغ رسالة الله كما أنزلت على محمد (ﷺ) ، لا نخفى شيئاً ولا نبدل ولا نغير .

وهنا نلاحظ أن القرآن لم يصف الحكمة بشيء ؛ لأن من أوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، ولكنه وصف الموعظة المطلوبة بالحسنة، فليس المطلوب أى موعظة ، ولكن الموعظة الحسنة الجميلة .

فقد يكون حسنها فى اختيار موضوعها المناسب للمخاطب .

وقد يكون حسنها فى اختيار أسلوبها المؤثر فيه .

وقد يكون حسنها أنها جاءت فى أوانها ، وفى مكانها .

وقد يكون حسنها أنها لمست وتراً حساساً من المخاطبين ، فأثرت فيهم.

وقد يكون حسنها أنها قدرت ضعف الإنسان ، فلم تؤنبه حين يسقط ، ولم تجرحه حين يعثر ويخطىء ، فكل بنى آدم خطاء .

وقد يكون حسنها أنها اتخذت المنهج الوسط فى الترغيب والترهيب ، أو الرجاء والخوف ، فلم تخوف الناس حتى ييئسوا من روح الله ، ولم تبالغ فى الرجاء حتى يأمن الناس من مكر الله .

ثم يأتى الأمر الثانى من عند الله – ﷻ – : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، ومن الملاحظ على التعبير القرآنى المعجز فى الآية أنه اكتفى فى الموعظة بأن تكون (حسنة) ، ولكنه ل يكتف فى الجدال إلا أن يكون بالتى هى (أحسن)؛ لأن الموعظة تكون مع الموافقين ، أما الجدال فيكون مع المخالفين ، لهذا وجب أن يكون بالتى هى أحسن ، على معنى أنه لو كانت هناك للجدال والحوار طريقتان : طريقة حسنة وجيدة ، وطريقة أحسن منها وأجود ، كان المسلم الداعية مأموراً أن يحاور مخالفيه بالطريقة التى هى أحسن وأجود .

ومن ذلك أن يختار أرق العبارات ، وأخف الأساليب فى جداله مع المخالفين ، حتى يؤنسهم ويقربهم منه ، ولا يوغر صدورهم أو يثير عصبيتهم .

وقد ضرب القرآن أمثلة رائعة وبارزة فى هذا المجال فى حسن مجادلة المخالفين . ومن ذلك قوله – تعالى – فى جدال المشركين : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

ففى هذا الأسلوب الرقيق الرفيق من إرخاء العنان ، وتسكين الخصم وإرضاء غروره ، ما يهيىء نفسه للاقتناع أو الاقتراب منه إلى

(١) سورة سبأ ، الآيتان (٢٤ ، ٢٥) .

حد كبير ، فهو يقول : ﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ ولم يقل لهم : أنتم فى ضلال مبين ، ثم قال : ﴿ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ وكان مقتضى المقابلة أن يقول : (ولا نسأل عما تجرمون) ولكن لم يشأن أن يجيبهم بنسبة الإجرام إليهم ، إيناساً وتقريبا وتأليفاً لقلوبهم.

ومن الجدال بالتى هى أحسن : التركيز على الجوامع المشتركة بين المتحاورين ، لا على نقاط الاختلاف والتمايز بينهما ، فإن وجود أرض مشتركة بين الطرفين يساعد على جدية الحوار وجدواه ، وإمكان الانتفاع به فيما هو متفق عليه بين الأطراف المتجادلة .

وهذا ما يشير إليه القرآن فى الجدال مع أهل الكتاب ، حيث يقول: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (١)

فهو هنا يركز على العقائد التى تقرب المسلمين منهم ، وهى أن المسلمين يؤمنون بكل ما أنزل الله من كتاب ، كما يؤمنون بكل من بعث الله من رسول ، وكذلك يؤمن الجميع بإله واحد ، ومن هذه النقطة ينطلق

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية (٤٦) .

اللقاء لمواجهة الملاحدة والجاحدين الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها ولا يعتقدون أن للكون إلها ولا أن فى الإنسان روحاً ولا أن وراء الدنيا آخرة .

ومن الجدال بالتى هى أحسن ما ذكره صاحب (الظلال) – رحمه الله – أن يكون الحوار : "بلا تحامل على المخالف ، ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعى ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة فى الجدل ، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق ، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهى لا تنزل عن الرأى التى تدافع عنه إلا بالرفق ، حتى لا تشعر بالهزيمة ، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأى وقيمتها هى عند الناس ، فتعتبر التنازل عن الرأى تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها ، والجدل بالحسنى هو الذى يطامن من هذه الكبرياء الحساسة ، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة ، وقيمته كريمة ، وأن الداعى لا يقصد إلا كشف الحقيقة فى ذاتها ، والاهتداء إليها فى سبيل الله ، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأى الآخر !

ولكن يطامن الداعية من حماسته واندفاعاته يشير النص القرآنى إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله وهو الأعلم بالمهتدين ، فلا ضرورة للجاجة فى الجدل إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله "[1] أهـ .

ومن الجدال بالتى هى أحسن ، المطالب به المسلمون ، وخصوصاً

---

(١) فى ظلال القرآن (٤/٢٢٠٢) .

فى عصر العولمة : ألا نخاطب المخالفين لنا باسم الكفار ، وإن كنا نعتقد كفرهم ، ولاسيما مخالفونا من أهل الكتاب ، وذلك لأمرين :

أولهما : إن كلمة (كفار) لها عدة معان ، بعضها غير مراد لنا يقينا ، من هذه المعانى : الجحود بالله – تعالى – وبرسله وبالدار الآخرة، كما هو شأن الماديين الذين لا يؤمنون بأى شىء وراء الحس ، فلا يؤمنون بإله ولا بنبوة ولا بآخرة . ونحن إذا تحدثنا عن أهل الكتاب لا نريد وصفهم بالكفر بهذا المعنى ، إنما نقصد أنهم كفار برسالة محمد وبدينه ، وهذا حق ، كما أنهم يعتقدون أننا كفار بدينهم الذى هم عليه الآن ، وهذا حق أيضاً .

والثانى : أن القرآن علمنا ألا نخاطب الناس – وإن كانوا كفاراً – باسم الكفر ؛ فخطاب الناس – غير المؤمنين – فى القرآن ، إما أن يكون بهذا النداء (يا أيها الناس) أو (يا بنى آدم) أو (يا عبادى) أو (يا أهل الكتاب).

ولم يجىء فى القرآن خطاب بعنوان الكفر إلا فى آيتين : إحداهما خطاب لهم يوم القيامة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١). والأخرى قوله – تعالى – : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

(١) سورة التحريم ، الآية (٧) .

ٱلْكَـٰفِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (١) ، فكان هذا خطاباً للمشركين الوثنيين الذين كانوا يساومون الرسول الكريم على أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة ، فأرادت قطع هذه المحاولات بأسلوب صارم، وبخطاب حاسم، لا يبقى مجالاً لهذه المماحكات، فأمر الرسول أن يخاطبهم بهذه الصورة القوية، بما فيها من تكرار وتوكيد، ومع هذا ختمت السورة بهذه الآية التى تفتح باباً للسماحة مع الآخر، حيث قالت: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٢).

ومن التعبيرات المطلوبة فى عصر العولمة : التعبير بالأخوة عن العلاقة بين البشر كافة ، والمراد بها (الأخوة الإنسانية) العامة، على اعتبار أن البشرية كلها أسرة واحدة، تشترك فى العبودية لله، والبنوة لآدم ، وهذا ما قرره حديث نبوى شريف خاطب به رسول الإسلام الجموع الحاشدة فى حجة الوداع، فكان مما قاله فى هذا المقام: "يا أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"(٣).

وهذا الحديث يؤكد قول الله – تعالى – فى مطلع سورة النساء : ﴿

(١) سورة الكافرون ، الآيتان (١،٢) .

(٢) سورة الكافرون ، الآية (٦) .

(٣) أخرجه الطبرانى فى "المعجم الكبير" (١٢/١٨) ، وأحمد فى "مسنده" (٥/٤١١) ، والهيثمى فى "مجمع الزوائج" (٣/٢٦٦) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [1] . وما أجدر كلمة (الأرحام) فى فى هذه الآية : أن تشمل – فيما تشمل – الأرحام الإنسانية التى تربط الناس بعضهم ببعض ، وفى ذلك يقول الشاعر :

إذا كان أصلى من تراب فكلها بلادى ، وكل العالمين أقاربى[2]!

وفى حديث عن النبى (ﷺ)كان يقول : "اللهم ربنا ورب كل شىء ومليكه : أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة"[3].

أما إذا كان عصر العولمة يريد منا خطابا دينياً جديداً ، نحرف فيه الإسلام عن حقيقته أو نحرف الكلم عن مواضعه ، بحيث نقدم لهم إسلاماً على هواهم، إسلاماً كسير الجناح منزوع السلاح لا حول له ولا قوة ،

---

(١) سورة النساء ، الآية (١) .

(٢) البيت لأبى العرب الصقلى – ينظر : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – لأحمد بن محمد المقرى التلمسانى (٣/٥٧٠) ط : دار صادر – بيروت – ١٣٨٨ هـ – ت/ د/ إحسان عباس .

(٣) أخرجه النسائى فى "السنن الكبرى" (٦/٣٠) ، وأبو داود فى "سننه" (٢/٨٣) ، والطبرانى فى "المعجم الكبير" (٥/٢١٠) ، وأحمد فى "مسنده" (٤/٣٦٩) .

يؤمر فيطاع ويقاد فينقاد ، ويطلب من العلماء والدعاة والكتاب أن يقدموا عقيدة بلا شريعة وعبادة بلا معاملة وسلاماً بلا جهاد وحقا بلا قوة ومصحفاً بلا سيف ودعوة بلا دولة ، فهذا إسلام لا نعرفه ولا يعرفنا، وليس هو إسلام السنة والقرآن ولا إسلام رسول الله والصحابة ومن تبعهم من خير القرون ، فهذا إسلام مزيف على المسلمين ، وهذا مرفوض من أمة الإسلام(١).

إننا يجب علينا جميعاً كأمة وكمسئولين ، أن نبلغ رسالة الله بكل ما نملك من طاقة ، وهذا يحتاج إلى من يحسن تصوير الإسلام ، ويحسن عرضه بالحكمة والموعظة الحسنة .

اسأل الله – تعالى – أن يوفقنا لأن نفهم الإسلام بفهم سلف الأمة ، وأن نكون هاديين مهديين ، غير ضالين ولا مضلين أو جاهلين .

---

(١) منهج الخطاب الدينى كما رسمه القرآن – للدكتور/ يوسف القرضاوى – موقع القرضاوى.

ثالثاً : حسـن الجـوار

قال – تعالى – : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (١)

كان مجتمع المدينة قائماً على تعدد الأديان والأعراق والطوائف ، ولم يكن سكان المدينة يوماً أبناء دين واحد فى ذلك الوقت ، وإنما تنوعت أديانهم بين مسلمين ويهود ومشركين ، ولكن جمعتهم الدولة الإسلامية فى بوتقة المواطنة ، فالإسلام والمسلمون لا يعترفون أو يقرون بمسألة تطهير الأرض وتوحيد الدين وإكراه الناس على الدخول فى دينهم أو الرحيل من أرضهم ، وهذه سنة الله فى خلقه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى التنوع الدينى فقال : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (٢).

ونبه إلى تعدد الأعراق والشعوب فقال : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية (٨) .

(٢) سورة الحج ، من الآية (٤٠) .

وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [1]. كذلك أمر بعدم إجبار أحد على اعتناق الإسلام فقال : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [2].

إن التعايش السلمى الذى يدعو إليه الإسلام يؤدى بدوره إلى تبادل المصالح والأفكار والمنافع، وتقوية العلاقات مع الآخر ، وقد كان الأمر على هذا منذ بزغ فجر الإسلام بين المسلمين وغيرهم ، حيث جعل الإسلام علاقة المسلمين بغيرهم قائمة على أسس إيمانية مبنية على قيمة السلام، وبعيدة عن صفة العنف والطغيان.

وقد طبق الرسول (ﷺ) هذا النموذج فى التعامل مع غير المسلمين بالحسنى، فكان يحسن جوارهم، ويؤدى إليهم حقوقهم، ويدعو إلى حسن معاملتهم فى الأمور اليومية ، فى إطار من الرحمة وحفظ كرامة الإنسان[3].

ومن حسن الجوار مع الآخر فى الإسلام؛ أن لا يظلمه لا فى نفس، ولا فى مال ، ولا فى عرض ، إذا كان ذمياً أو مستأمنا أو معاهداً ، فإنه يؤدى إليه حقه ، فلا يظلمه فى ماله لا بالسرقة ولا بالخيانة ولا بالغش،

---

(١) سورة الحجرات ، من الآية (١٣) .

(٢) سورة البقرة ، من الآية (٢٥٦) .

(٣) من تطبيقات وثيقة المدينة : حسن معاملة الجار – د/ على جمعه – الأهرام ٨ مايو ٢٠١١م .

ولا يظلمه فى بدنه بالضرب ولا بالقتل ، لأن كونه معاهداً أو ذمياً فى البلد أو مستأمناً ؛ هذا كله يعصمه .

ومن حسن الجوار – أيضاً – : أنه لا مانع من معاملته فى البيع والشراء والتأجير ، ونحو ذلك ، فقد صح عن رسول الله (ﷺ) أنه اشترى من الكفار ، واشترى من اليهود ، وتوفى (ﷺ) ودرعه مرهونة عند يهودى فى طعام لأهليه – عليه الصلاة والسلام – ، ولا يخفى على عاقل أن المعاملات التجارية اليومية لا تتم إلا فى ظل التعايش السلمى الذى حض عليه الإسلام، وآية ذلك أن المرأة المسلمة كانت تذهب بنفسها لتشترى من اليهود فى سوقهم دون حرج، مما يدل على حالة الأمن والأمان السائدة فى ربوع المدينة.

ومما يؤكد ذلك المنحى : أن المسلمين كانوا يشترون الماء من بئر رجل يهودى من بنى غفار يقال له رومة حتى اشتراها سيدنا عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ووهبها للمسلمين ، وذلك طاعة لقول رسول الله (ﷺ) .

ومن حسن الجوار – أيضاً – أن غير المسلم إذا كان جاراً أن تحسن إليه ولا تؤذيه فى جواره ، وتتصدق عليه إذا كان فقيراً ، وتهدى إليه ، وتنصح له فيما ينفعه ، لأن هذا مما يسبب رغبته فى الإسلام ، ودخوله فيه .

ولأن الجار له حق ، قال الرسول (ﷺ) : "مازال جبريل يوصينى

بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"(١)، وإذا كان الجار كافراً كان له حق الجوار، وإذا كان قريباً وهو كافر فله حقان : حق الجوار ، وحق القرابة.

ومن حسن الجوار مع الآخر – أيضاً – العمل على الإصلاح بين المتخاصمين والمتشاجرين دون تفريق على أساس الدين أو العرق ، لتصفو النفوس وتستقر الأمور بين أبناء المجتمع الواحد ، روى البخارى أن الرسول (ﷺ) قرأ القرآن على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، فقال عبد الله بن أبى بن سلول : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجلسنا ، ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رواحة : بلى يا رسول الله ، فأغشنا به فى مجالسنا ، فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى (ﷺ) يخفضهم حتى سكتوا(٢).

---

(١) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الأدب – باب : الوصاة بالجار – ح (٦٠١٤) ، ومسلم فى "صحيحه" كتاب : البر والصلة والآداب – باب : الوصية بالجار والإحسان إليه – ح (٢٦٢٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : التفسير – باب : ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾ – ح (٤٥٦٦) .

إن الإسلام وهو يشيع هذه الأخلاق الفاضلة ليحافظ على الوحدة بين طوائف المجتمع بمختلف مذاهبهم ومشاربهم ، وقد تبرأ الرسول (ﷺ) ممن خرج يريد زرع بذور الفتنة والفرقة بين أفراد المجتمع ، فقال : "**من خرج على أمتى يضرب برها وفاجرها ولا يتحاش من مؤمنها ولا يفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه**".[1]

فالدولة الإسلامية قامت على أساس قوى من حرية العقيدة والمساواة بين المواطنين ، دون النظر إلى اختلاف الديانات والعرقيات ، كما أكدت على ترسيخ مفاهيم التسامح والوحدة ، والدعوة إلى نشر المقاصد والقيم المشتركة بين بنى الإنسان، ومن ذلك حب الجار والبر به[2].

ومن حسن الجوار التى حفلت بها السيرة العطرة؛ عيادة غير المسلمين، روى البخارى بسنده عن أنس – رضي الله عنه – قال : كان غلام يهودى يخدم النبى (ﷺ) فمرض فأتاه النبى (ﷺ) يعوده ، فقعد عند رأسه فقال له : أسلم ، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له : أطع أبا

---

(١) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : الإمارة – باب : وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفى كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة – ح (١٨٤٧) .

(٢) من تطبيقات وثيقة المدينة – د/ على جمعه .

القاسم (ﷺ) فأسلم ، فخرج النبى (ﷺ) وهو يقول : "**الحمد لله الذى أنقذه من النار**"(١).

وقد تكلم القرآن والسنة النبوية عن صور كثيرة من حسن جوارهم؛ منها:

- حل ذبائحهم .
- جواز النكاح من نسائهم .
- قبول هداياهم .
- جواز الانتفاع بما عندهم .
- الرهن عندهم .
- حرمة دماءهم .

والخلاصة : أن الله – تبارك وتعالى – قد أمر المسلمين ببر مخالفيهم فى الدين ، الذين لم يتعرضوا لهم بالأذى والقتال ، فقال : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

---

(١) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الجنائز – باب : إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ؟ – ح (١٣٥٦) .

أن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

قال الإمام الطبرى – رحمه الله – :

"عنى بذلك : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم ... وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ يقول : إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم ، فيبرون من برهم ، ويحسنون إلى من أحسن إليهم"(١).

والبر أعلى أنواع المعاملة ، فقد أمر الله به فى باب التعامل مع الوالدين ، وقد وضحه رسول الله (ﷺ) بقول : "**البر حسن الخلق**"(٢).

---

(١) تفسير الطبرى (٦٦/٢٨) .

(٢) أخرجه مسلم فى "صحيحه" كتاب : البر والصلة والآداب – باب : تفسير البر والإثم – ح (٢٥٥٣) .

رابعاً : الخوف من مكائد الكفار ومؤامرتهم

قال – تعالى – : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (١)

لقد تنوعت مكائد الكفار ومؤامراتهم وتخطيطاتهم وتدبيراتهم للقضاء على الإسلام وأهله ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (٢) ، وتنوعت أساليبهم فى ذلك ؛ فى غارات شنيعة متنوعة بغية القضاء على الإسلام والإجهاز على المسلمين؛ غارات مسلحة وغزو فكرى وحروب أخلاقية وغزو عاطفى منوع .

فإذا تأملنا فى غزو الكفار المسلح فإننا نرى ذلك شاهد عيان؛ بين وقت وآخر تشعل حروب شرسة ، وكلما طفئت الحرب فى مكان أشعلت فى مكان آخر للقضاء على قوة الإسلام وأبناء المسلمين ، وللقضاء على مقوماتهم ومقدراتهم وممتلكاتهم ؛ ليكون أهل الإسلام فى ضعف ووهن

---

(١) سورة البقرة ، من الآية (٢١٧) .

(٢) سورة الصف ، الآية (٨) .

وقلة عدة وعدد .

وإذا نظرنا إلى الغزو الفكرى فإنه أشد وأنكى ؛ فهى حروب شرسة أشعلها الكفار بغية خلخلة عقول المسلمين والعبث فى أفكارهم ، لتتنحى من قلوب أهل الإسلام عقيدة راسخة وإيماناً قويما بالله – تبارك وتعالى – وبما أمرهم – ﷺ – بالإيمان به ، ولإبعادهم عن إيمانيات ملئت القلوب وعقائد صحيحة زانت بها النفوس إلى انحراف مشين وإلى تيه وضلال ، وما أكثر ما يكيد الكفار لأهل الإسلام فى هذا الباب ، ولاسيما من خلال الوسائل المتاحة فى هذا الزمان لنشر المعلومات السريعة ولإيصال الأفكار بأقرب طريق وأيسر سبيل ، وها هى القنوات الفاضحة والمجلات الهابطة والمواقع الآثمة تنشر فى عقول الشباب والناشئة أفكاراً هدامة وأموراً ملوثة تطيح بالعقائد وتزيل الإيمان، وتجعل الشباب ينشأ محتاراً متشككاً ، أو تائهاً حائراً ، شاكا زائغاً .

وأما الغزو في جانب الأخلاق فما أشنعه وما أفظعه وما أكثره ، ما أكثر عبث الكفار الآن بأخلاقيات كثير من المسلمين فى محاولة شنيعة للإطاحة بالأخلاق الإسلامية والآداب المرعية لجعل الشباب والناشئة يعيشون فى مرتع الشهوات البهيمية دون نظر إلى دين أو قيم أو مبادئ أو أخلاق ؛ بحيث لا يكون للشباب هم إلا إشباع غرائزه البهيمية وشهواته الحيوانية غير مراع لدين ولا قيم ولا لآداب ؛ ولهذا يخطط الكفار فى هذا المجال تخطيطاً شنيعاً شديداً من خلال ما يبثونه من أفلام هابطة وصور ماجنة وأغان خليعة تحرك فى النفوس الشهوات الآثمة ، والنزوات البهيمية ، ومن ركن إلى هؤلاء مستمعاً بأذنه ناظراً بعينه

أفسدوا أخلاقه أيما فساد[1] .

وأما غزوهم العاطفى فهو نوع آخر من المكر ؛ أرادوا من خلاله أن يظهروا أنفسهم بين أهل الإسلام بأنهم أهل عطف ورحمة وسعى فى تحقيق المصالح العامة والمكاسب المتنوعة ؛ ويذرّون الرماد فى العيون ليغفل أهل الإسلام عن مكر وكيد هؤلاء ، والله – تبارك وتعالى – يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [2].

إننا إذا تتبعنا المحاولات التى كان الكفار يكيدون بها للإسلام من البداية ؛ لوجدنا أنهم فى البداية حاولوا صد الناس عن إتباع الرسول (ﷺ) ، ووصفوه بأبشع الأوصاف ، بل وحاولوا قتله – عليه الصلاة والسلام – ، وقاتلوه وقتلوا بعض أتباعه ؛ فلم يفلحوا ، ثم لجأوا بعد ذلك إلى طريقة خبيثة ماكرة ؛ وهى الدخول فى الإسلام فى الظاهر ، والكيد له فى الباطن ؛ قال – تعالى – : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [3] ، فسرعان ما فضح الله كيدهم ، وحذر

---

(١) التحذير من مكر الكفار – خطبة جمعة على شبكة الإنترنت .

(٢) سورة الممتحنة ، من الآية (١) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية (٧٢) .

المسلمين من شرهم ، وكشف نواياهم وخططهم ، وبعد وفاة النبى (ﷺ) تألب اليهود والمجوس على المسلمين ، فأظهر ناس منهم الإسلام خدعة ، واندسوا بين المسلمين لبث الفتنة والإفساد ، واغتالوا الخلفاء ، وأثاروا الحروب بين المسلمين ، وسرعان ما أبطل الله كيدهم – أيضاً – .

وفى أيامنا هذه تشتد هجمة الأعداء ، ويتجدد مكرهم ، وتتوحد قواهم لضرب المسلمين وحصارهم ، فهم يتعاونون فيما بينهم ضد الإسلام والمسلمين، والمعركة التى يقودها الباطل والمبطلون ضد الحق يتجمع فيها أصناف الشياطين ، ويتعاونون لإمضاء خطة مدبرة ، فبعضهم يوحى إلى بعض ، وبعضهم يغوى بعضا ، ونحن فى هذه الأيام أمام هجمات شرسة ، بكل المقاييس ، وفى ظل أزمة لا يعلم مداها إلا الله ، فمؤشرات الفتن تملأ الآفاق ، والمصيبة أن المسلمين فى غفلة عن هذا ، فى الوقت الذى يتحرك فيه الأعداء ، ويدبرون ويخططون[1] .

لاشك أن أعداء الإسلام يبذلون كل المكائد ليشوهوا سمعة الإسلام، وبذلوا – ومازالوا – كل ما يستطيعون فى المطاعن التى يطعنون بها على الدين ، يطعنون بها على الإسلام ، ويشوهون صورته النقية الناصعة .

---

(١) ينظر : كشف الغمة عن أسباب فرقة الأمة – للباحث (ص/٩٩ وما بعدها) ط : مكتبة الإيمان – العجوزة – القاهرة – الأولى – ١٤٣٤ هـ – ٢٠١٣م .

ودخلوا من جملة مداخل كثيرة ، فطعنوا مرة بأن الإسلام دين الشدة ، وأنه يشدد على الناس فى العبادات والصلوات وما أشبه ذلك .

ودخل آخرون من باب أن الإسلام كبت حريتهم ، وأنه ضيق عليهم ، وما علموا أن الإسلام ما حرم شيئاً إلى وفى الشىء الذى حرمه مضرة ، وفى تحريمه والمنع منه مصالح عظيمة لا يحصى عددها إلا الله – ﷻ – .

ثم إنهم دخلوا أيضاً على الإسلام من باب أن الإسلام هضم حقوق المرأة وظلمها ، وأن المرأة فى دين الإسلام محجورة بين أربعة حيطان ليس لها تصرف ، وأنه كبت وبخس حقها ، فتارة يقولون بأن الإسلام جعل المرأة على النصف من الرجل ، وتارة يدعون بأن الإسلام رماها بأنها ناقصة عقل ودين ، وغير ذلك ، فكان ذلك مدخلاً للتلبيس على الناس وتشويه صورة الإسلام ، ولو أنهم قرأوا عن الإسلام وكان عندهم أدنى معرفة وأدنى إنصاف ما ذكروا ذلك ؛ لأن الإسلام حقق السعادة للبشرية كلها ؛ مسلمهم وغير مسلمهم ، النساء والأطفال والرجال ، بل ما عرفت المرأة حقا ولا كرامة إلا عن طريق الإسلام، فانظر إلى حال المرأة قبل الإسلام ، وانظر إلى حالها عند الحضارات الأخرى؛ كالهند والصين والرومان وغيرها، لم يكن للمرأة حقا عند هؤلاء ، بل كانت لا تساوى شيئاً ، لكن الإسلام منذ البداية كرم المرأة أما وأختا وبنتا وزوجة ، ولكن يبقى الأمل فى موعود الله – ﷻ – ، وموعود رسوله (ﷺ) ، فكيد الأعداء مهما بلغ شأنه ، واجتمع له الخصوم من كل صوب فليس طليقاً ، بل هو مقيد بقدر الله – ﷻ – ، ومحاط بمشيئة – سبحانه – ،

ونهاية مكرهم فى تباب، والمكر السيىء لا يحيق إلا بأهله .

فقد يتعرض المسلمون للأذى ، ويتعرضون لكيد الأعداء ، وما ذلك إلا لحكمة إلهية ؛ منها : ابتلاء المؤنين وتمحيصهم ، ومحق الكافرين ، وكشف المنافقين ، فيمتحن الله - ﷻ - المسلمين للثبات على الإسلام - وإن هوجم -، وللصبر على الحق - وإن طردوا - ، وللنصرة المسلمين - وإن كانوا مضطهدين - ، ولكن يبقى تحقيق الشرط ؛ شرط الإيمان - قال - تعالى - ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (1).

جاء فى سنن أبى داود وغيره أن نبينا (ﷺ) كان إذا خاف قوماً قال : "**اللهم إنا نجعلك فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم**"(2).

وثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقى فى النار ، وقالها محمد (ﷺ) حين قالوا : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ

---

(1) سورة آل عمران ، الآية (١٣٩) .

(2) أخرجه أبو داود فى "سننه" (٢/٨٩) ، وابن حبان فى "صحيحه" (١١/٨٢) ، والحاكم فى "المستدرك" (٢/١٥٤) وغيرهم .

جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ (1).

فـ ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ كلمة جديرة أن تتردد على لسان كل مسلم مع استشعار معناها وعقل دلالتها وتحقيق مقصودها ، بقوة الثقة بالله وتمام التوكل عليه ، وحسن الالتجاء إليه ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ (2) ، ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (3) .

ولذلك علينا أن نكون متوكلين على الله ، صادقين فى الثقة به أن يعز الإسلام وأهله ، وأن يذل الشرك والمشركين ، وأن نحسن التوجه إليه بدعوات صادقة ورجاء وسؤال وطمع فى العطاء والنوال ، وهو – سبحانه وتعالى – لا يرد عبداً دعاه ، ولا يخيب مؤمنا رجاه .

---

(1) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : التفسير – باب : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ﴾ ح (٤٥٦٤) .

(2) سورة الزمر ، من الآية (٣٦) .

(3) سورة الطلاق ، من الآية (٣) .

خامساً : الوفاء بالمعاهدات المبرمة

قال – تعالى – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (١)

وقال – ﷻ – : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ (٢)

الإسلام هو دين الصدق والوفاء والاستقامة ، وهو كذلك دين الرحمة والمرحمة ، جاء هدى للناس ، وبيان لحسن الخلق ، وحسن المعاملة ، وتعليم البشرية هذه الأحكام العادلة المستقيمة ، وقد كان لهذه الصفات العظيمة فى هذا الدين العظيم تأثيرها البالغ الكبير على الناس ، وخاصة فى البلاد المفتوحة ، والتى وصلها المسلمون حاملين هذا الدين رسالة خير وهدى ورحمة .

---

(١) سورة المائدة ، من الآية (١) .

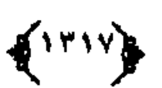
(٢) سورة النحل ، الآيتان (٩١ ، ٩٢) .

ولقد سطر التاريخ أروع الأمثلة على التزام المسلمين بهذا المبدأ والحرص عليه ، فحققوا قول الله – ﷻ – ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ ، فاعتبروا أن المعاهدات عقد من العقود يجب الوفاء به .

ومن المعاهدات التي وُقعت بين الدولة الإسلامية وغيرها ما عاهد عليه رسول الله (ﷺ) يهود المدينة عند قدومه إليها ، وجاء في هذا العهد : "إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ، ماداموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ؛ مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يُوتِغ[1] إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجار ، وبني الحارث ، وبني ساعدة ، وبني جشم ، وبني الأوس ، وبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح فإنهم يصالحون ، وإذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإنه لا

---

(١) يوتغ : أي يُهلك .



يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى "[1].

ويتبين من بنود هذه المعاهدة أنها كانت لتقرير حالة السلم بين اليهود والمسلمين ، كما أنها أمان بينهم لضمان عدم وقوع الحروب ، كما يظهر من هذه المعاهدة أنها كانت "لحسن الجوار" ولتثبيت دعائم العدل ، ويلاحظ أن فيها نصا صريحاً على نصر المظلوم ، فهو عهد عادل لإقامة السلم وتثبيته ونصر الضعيف[2].

وعاهد النبى (ﷺ) بنى ضمرة من قبائل العرب ، وهذا نص ذلك العهد : "هذا كتاب محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم ، إلا أن يحاربوا فى دين الله ، .... ، وأن النبى (ﷺ) إذا دعاهم إلى النصرة أجابوه ، عليهم بذلك ذمة رسوله ، ولهم النصر من بر منهم واتقى "[3].

---

(١) السيرة النبوية – لـــ : عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافرى أبو محمد (٤٣/٣) ط : دار الجيل – بيروت – الأولى – ١٤١١ هـــ – ت/ طه عبد الرؤوف سعد .

(٢) العلاقات الدولية فى الإسلام – محمد أبو زهرة – (ص/٨١) ط : دار الفكر العربى – القاهرة – ١٩٩٥م .

(٣) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد – محمد بن يوسف الصالحى الشامى (١٤/٤) ط : دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى – ١٤١٤ هـــ – ت/ عادل أحمد عبد الوجود وعلى محمد معوض .

ومن أروع صور الوفاء بالعهود ما أخرجه الإمام أحمد – رحمه الله – في مسنده بسنده عن حذيفة بن اليمان قال : ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى حسيل فأخذنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمداً ؟ قلنا : ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول الله (ﷺ) فأخبرناه الخبر ، فقال : انصرفا نفى بعهدهم ونستعين الله عليهم[1] .

ومن المعاهدات الإسلامية – أيضا – عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لأهل إيلياء ، والتى سميت بالعهدة العمرية .

وبالنظر إلى هذه المعاهدات وغيرها نجد أن المسلمين إنما يحاولون العيش فى جو هادئ مسالم مع من يجاورونهم ، وأنهم لم يسعوا لقتال قط ، بل كانوا دائمين مؤثرين السلم على الحرب ، والوفاق على الشقاق .

ضوابط وشروط المعاهدات فى الإسلام :

أنشأ الإسلام ضوابط وشروطا للمعاهدات تضمن لها أن تكون موافقة للشريعة ، وللهدف الذى من أجله أجيزت .

يقول الإمام الأكبر الشيخ/ محمود شلتوت – رحمه الله – :

---

(١) أخرجه أحمد فى "مسنده" (٣٩٥/٥) .

والإسلام حينما يترك للمسلمين الحق فى إنشاء المعاهدات – لما يرون – من أغراض – يشترط فى صحة المعاهدة ثلاثة شروط :

أولاً : ألا تمس قانونه الأساسى وشريعته العامة ، التى بها قوام الشخصية الإسلامية ، وقد جاء فى ذلك قوله – عليه السلام – :
"كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل"(١)
ومعناه أن كتاب الله يرفضه ويأباه .

ومن خلال هذا الشرط لا يعترف الإسلام بشرعية معاهدة تستباح بها الشخصية الإسلامية ، وتفتح للأعداء باباً يُمكنهم من الإغارة على جهات إسلامية ، أو يُضعف من شأن المسلمين ؛ بتفريق صفوفهم ، وتمزيق وحدتهم.

ثانياً : أن تكون مبنية على التراضى من الجانبين ، ومن هنا لا يرى الإسلام قيمة لمعاهدة تنشأ على أساس من القهر والغلبة وأزيز (النفاثات) ، وهذا شرط تُمليه طبيعة العقد ؛ فإذا كان عقد التبادل فى سلعة ما – بيعا وشراء – لابد فيه من عنصر الرضا : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمۡ ﴾ (٢) ، فكيف بالمعاهدة ، وهى للأمة عقد حياة أو موت .

---

(١) أخرجه ابن حبان فى "صحيحه" (١٠/٩٤) ، وابن ماجة فى "سننه" (٢/٨٤٢) .

(٢) سورة النساء ، من الآية (٢٩) .

ثالثاً : أن تكون المعاهدة بينة الأهداف ، واضحة المعالم ، تحدد الالتزامات والحقوق تحديداً لا يدع مجالاً للتأويل والتخريج واللعب بالألفاظ ، وما أصيبت معاهدات الدول المتحضرة – التى تزعم أنها تسعى إلى السلم وحقوق الإنسان – بالإخفاق والفشل ، وكان سبباً فى النكبات العالمية المتتابعة ، إلا عن هذا الطريق ، طريق الغموض والالتواء فى صوغ المعاهدات وتحديد أهدافها . وفى التحذير من هذه المعاهدات يقول الله – تعالى – : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (١)، والدخل هو الغش الخفى الذى يدخل فى الشىء فيفسده(٢).

وقد أكد القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، وكذلك السنة النبوية على وجوب الوفاء بالعهد ، ومن ذلك الآيات التى مر ذكرها ، وغيرها الكثير التى تشير إلى هذا المعنى العظيم .

وأما ما جاء في أحاديث الرسول (ﷺ) ، فمنه ما رواه عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله (ﷺ) : "أربع خلال من

(١) سورة النحل ، من الآية (٩٤) .

(٢) الإسلام عقيدة وشريعة – للإمام الأكبر/ محمود شلتوت (ص/ ٣٩٦ وما بعدها) ط : دار الشروق – الطبعة العشرون ٢٠١٠م .

كن فيه كان منافقاً خالصاً : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها "[1].

وعن أنس – رضي الله عنه – عن النبى (ﷺ) قال : "**لكل غادر لواء يوم القيامة**"[2].

وثبت عنه (ﷺ) أنه قال : "**من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهداً، ولا يشدنه حتى يمضى أمده ، أو ينبذ إليهم على سواء** "[3].

وفى سنن أبى داود عن رسول الله (ﷺ) قال : "**ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه ، أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه**

---

(١) أخرجه البخارى فى "صحيحه" كتاب : الجزية والموادعة – باب : إثم من عاهد ثم غدر – ح (٣١٧٨) ، ومسلم فى "صحيحه" كتاب : الإيمان – باب : بيان خصال المنافق (٥٨) .

(٢) أخرجه الخبارى فى "صحيحه" كتاب : الجزية والموادعة – باب : إثم الغادر للبر والفاجر – ح(٣١٨٦) .

(٣) أخرجه الترمذى فى "سننه" (١٤٣/٤) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

شيئاً بغير طيب نفس . فأنا حجيجه يوم القيامة"[1].

والفقهاء – وهم يرون أن الجهاد يكون مع الأمير الصالح والفاسق – يذهب أكثرهم إلى أن الجهاد لا يكون مع الأمير الذى لا يلتزم الوفاء بالعهود، وعلى خلاف القانون الدولى فى الحضارة المعاصرة فإن تغير الظروف لا يبرر نكث العهد ، وحتى إذا عجز المسلمون فى ظروف معينة عن الوفاء بالتزاماتهم يجب عليهم مراعاة التزامات الطرف الثانى، ومن هذا الباب القصة المشهورة عندما استولى القائد المسلم أبو عبيدة بن الجراح على حمص ، وأخذ من أهلها الجزية ، ثم اضطر إلى الانسحاب منها فرد الجزية التى أخذها من السكان، وقال : "إنما رددنا عليكم أموالكم ؛ لأنه بلغنا ما جمع من الجموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك .. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم "[2].

والأمثلة كثيرة من هذا النوع فى التاريخ الإسلامى؛ فتغير الظروف والمصلحة القومية لا تبرر فى الإسلام نقض العهد ، كما لا يبرره أن يرى المسلمون أنفسهم فى مركز القوة تجاه الطرف الثانى ، وقد ورد النص الصريح يؤكد ذلك ، فقال – تعالى – : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا

---

(١) أخرجه أبو داود فى "سننه" (٣/١٧٠) .

(٢) تفسير المنار – محمد رشيد رضا (١٠/٢٦٠) ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٠م .

عَهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، مع الأخذ فى الاعتبار بأن ذلك التشديد على المسلمين بالوفاء كان فى وقت وفى بيئة لم تكن القاعدة فيهما الوفاء بالعهود .

يقول الشيخ محمود شلتوت : "إن الوفاء بالمعاهدة واجب دينى ، يسأل عنه المسلم فيما بينه وبين الله ، ويكون الإخلال بها غدراً وخيانة"[1].

وبهذا يكون الإسلام قد سبق كل الأمم الأخرى بتشريعاتها فى مجال تقنين المعاهدات الدولية ، بل وتميز عنها فى عدالته وسماحته مع أعدائه ، والأهم أن ذلك السبق كان عملياً ولم يكن مجرد تنظير ، ويدل على ذلك ما وقعه المسلمون من معاهدات مع أعدائهم بداية من عصر الرسول (ﷺ) مروراً بعصر الخلفاء الراشدين ، ثم من بعدهم من عصور إسلامية[2] .

إذا : نخلص من ذلك بأن المعاهدات واجبة الوفاء – بشروطها – سواء أكانت بصلح دائم أم مؤقت ، أم كانت تنظيماً للعلاقات فى دائرة

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة (ص/٣٩٧) .

(٢) المعاهدات بين المسلمين وغير المسلمين – د/ راغب السرجانى – موقع قصة الإسلام .

السلم المستمرة، كالمعاهدات التى تؤمن طرق الاتصال ، وكالمعاهدات التى تنظم الاتجار ونحو هذا . والله أعلم .

الخاتمة

الخاتمـــة

الحمد لله المتفضل على عباده بأنواع النعم ، وواسع الإحسان والكرم ، والصلاة والسلام على نبيه المبعوث إلى جميع الخلائق ، وعلى آله وأصحابه المهتدين ، وبعد :

تم بفضل الله وتوفيقه ، ما أردت الحديث عنه فى هذا البحث ، عن موضوع : "الدستور الأخلاقى للدولة فى ضوء القرآن الكريم".

وقد أشرت فى ثنايا مباحثه عن أهمية الأخلاق فى حياتنا ، وكيف كفلت الشريعة الإسلامية الاستقرار والنجاح للمجتمع بهذا الدستور الأخلاقى ، سواء أكان للحاكم أم للمحكوم ، وحتى لا أعيد ما سطرته فى صلب هذا البحث ألخص ما توصلت إليه من خلال هذه الرحلة بإيجاز كى أعطى القارئ فكرة عامة ، وخلاصة إجمالية عن نتائج البحث :

١- أن الشريعة الإسلامية وافية بجميع مصالح العباد الدنيوية والأخروية ، كبيرة كانت أو صغيرة ، ثابتة أو مستحدثة ، وإن هدفها الأعظم هو إسعاد العباد فى الدنيا والآخرة ، وإن السعادة المطلوبة لا تتحقق إلا بمتابعة أحكامها وقواعدها ومبادئها .

٢- لقد عُنى الإسلام بالناحية الأخلاقية وأولاها اهتماماً كبيراً ، ووضع لها من التشريعات ما يحقق المصالح للناس عامة ، وما يمنع الاعتداء عليها بأى صورة .

٣- تذكر دائماً أن الضلع الأول : الصلاة ، والثانى : الزكاة ، الثالث :

الشورى، فأسوأ طريقة يمكن أن تدار بها دولة هى أن تنتهى كل الطرق إلى شخص واحد .

٤- القانون الأخلاقى قد طبع فى النفس الإنسانية منذ نشأتها ، غير أنه ناقص وغير كاف بحكم العادة والوراثة وأثر البيئة والمصالح المباشرة وغير ذلك، لذلك كان لابد من الدستور القرآنى لإيقاظ الضمير ، وتقويم المعوج ، وإزالة الغشاوة .

كل هذا وغيره فى ثنايا هذا البحث ، فما أحوجنا إلى الأدب ، لأنه عنوان الكمال يرفع الوضيع إلى درجة الرفيع ، ويعلو بالعامة إلى مرتبة الخاصة ، وبالخدم إلى مصاف الأمراء .

لكل شيء زينة فى الورى وزينـــة المـــرء تمام الأدب

قد يشرف المرء بآدابـــه فينا وإن كان وضيع النسب[1]

وقد أحسن من قال :

هى الأخلاق تنبت كالنبـــات إذا سقيـــت بماء المكرمـــات

تقـــوم إذا تعهدهـــا المربـــى على ساق الفضيلة مثمـرات

---

(١) معجم الأدباء – لـــ : ياقوت الحموى (٤٥/١) ط : دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١هــ – ١٩٩١م – الأولى .

وتسمو للمكارم باتساق | كما اتسقت أنابيب القناة

وتنعش من صميم المجد روحا | بأزهار لها متضوعات

ولم أر للخلائق من محل | يهذبها كحضن الأمهات

فحضن الأم مدرسة تسامت | بتربية البنين أو البنات

وأخلاق الوليد تقاس حسناً | بأخلاق النساء الوالدات(١)

نسأل الله – ﷻ – أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن ينال هذا البحث رضا واستحسان قارئه ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) من شعر معروف الرصافي – قصيدة بعنوان : هي الأخلاق تنبت كالنبات .

فهرس المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

١- الآداب الشرعية والمنح المرعية - أبو عبد الله محمد بن مفلح المقدسى - ط : مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م - الثانية - ت/ شعيب الأرناؤوط وعمر القيام .

٢- الأدب المفرد - محمد بن إسماعيل البخارى - ط : دار البشائر الإسلامية - بيروت - ١٤٠٩ هـ - الثالثة - ت/ محمد فؤاد عبد الباقى .

٣- أسباب النزول - أبو الحسن على بن أحمد بن محمد بن على الواحدى النيسابورى - ط : دار الإصلاح - الدمام - الثانية - ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م - ت/ عصام بن عبد المحسن الحميدان .

٤- الأسس الشرعية فى التعامل مع المال العام - عبد الحى يوسف - وزارة التنمية البشرية .

٥- الإسلام عقيدة وشريعة - محمود شلتوت - ط : دار الشروق - الطبعة العشرون - ٢٠١٠م .

٦- الأم - محمد بن إدريس الشافعى - ط : دار المعرفة - بيروت - اثانية - ١٩٩٣م .

٧- تاريخ الإسلام – شمس الدين الذهبى – ط : دار الكتاب العربى – لبنان – بيروت – الأولى – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م – ت/ عمر عبد السلام تدمرى .

٨- تاريخ الخلفاء – عبد الرحمن عن أبى بكر السيوطى – ط : مطبعة السعادة – مصر – الأولى – ١٣٧١ هـ – ١٩٥٢م – ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد .

٩- تاريخ الطبرى – أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى – ط : دار الكتب العلمية – بيروت .

١٠- تبويب آى القرآن من الناحية الموضوعية – أحمد إبراهيم مهنا – ط : مطابع دار الشعب – القاهرة .

١١- التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور – ط : دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس – ١٩٩٧م .

١٢- تفسير ابن أبى حاتم – عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الرازى – ط: المكتبة العصرية – صيدا – ت/ أسعد محمد الطيب .

١٣- تفسير ابن كثير – إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى أبو الفداء – ط : دار الفكر – بيروت – ١٤٠١ هـ .

١٤- تفسير الطبرى – محمد بن جرير الطبرى أبو جعفر – ط : دار الفكر – بيروت – ١٤٠٥ هـ .

١٥- تفسير المنار – محمد رشيد رضا – ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٩٠م .

١٦- التفسير الميسر – عائض القرنى – ط : مكتبة العبيكان – الرياض – الثانية – ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧م .

١٧- تهذيب التهذيب – ابن حجر العسقلانى – ط : دار الفكر – بيروت – الأولى – ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م .

١٨- الجامع لأحكام القرآن – أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى – ط : دار الشعب – القاهرة .

١٩- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – أبو نعيم الأصبهانى – ط : دار الكتاب العربى – بيروت – الرابعة – ١٤٠٥ هـ .

٢٠- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب – عبد القادر بن عمر البغدادى – ط : دار الكتب العلمية – بيروت – الأولى – ١٩٩٨م – ت/ محمد نبيل طريفى وإميل بديع اليعقوب .

٢١- الدر المنثور – جلال الدين السيوطى – ط : دار الفكر – بيروت – ١٩٩٣م .

٢٢- ديوان أحمد شوقى – ط : دار العودة – بيروت – ١٩٨٨م .

٢٣- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - أبو الفضل شهاب الدين الألوسى - ط : دار إحياء التراث العربى - بيروت .

٢٤- سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد - محمد بن يوسف الصالحى الشامى - ط : دار الكتب العلمية - بيروت - الأولى - ١٤١٤ هـ - ت/ عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض.

٢٥- سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد أبو عبد الله القزوينى - ط : دار الفكر - بيروت - ت/ محمد فؤاد عبد الباقى .

٢٦- سنن أبى داود - سليمان بن الأشعث أبو داود السجستانى الأزدى - ط : دار الفكر - بيروت - ت/ محمد محيى الدين عبد الحميد .

٢٧- سنن الترمذى - محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذى - ط : دار إحياء التراث العربى - بيروت - ت/ أحمد محمد شاكر وآخرون .

٢٨- السنن الكبرى - أحمد بن الحسين بن على بن موسى أبو بكر البيهقى - ط: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م - ت/ محمد عبد القادر عطا .

٢٩- السنن الكبرى - أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائى- ط: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١ هـ - ١٩٩١م - الأولى - ت/ عبد الغفار سليمان البندار وسيد كسروى حسن .

٣٠- السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية - أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى - ط : دار المعرفة - الأولى .

٣١- السيرة النبوية - عبد الملك بن هشام بن أيوب المعافرى أبو محمد - ط/ دار الجيل - بيروت - الأولى - ١٤١١ هـ - ت/ طه عبد الرؤوف سعد .

٣٢- شرح العقيدة الطحاوية - ابن أبى العز الحنفى - ط : المكتب الإسلامى - بيروت - ١٣٩١ هـ - الرابعة .

٣٣- شرح النووى على صحيح مسلم - أبو يحيى بن شرف النووى - ط : دار إحياء التراث العربى - بيروت - الثانية - ١٣٩٢ هـ .

٣٤- شرح قصيدة ابن القيم - أحمد بن إبراهيم بن عيسى - ط : المكتب الإسلامى - بيروت - الثانية - ١٤٠٦ هـ - ت/ زهير الشاويش .

٣٥- شعب الإيمان - لأبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى - ط : دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٠١ هـ - الأولى - ت/ محمد السعيد بسيونى زغلول .

٣٦- الشورى فى الميدان العملى - محمد فتحى - ط : دار البيان - القاهرة - الأولى - ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م .

٣٧- صحيح ابن حبان - محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمى

البستى – ط : مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣م – الثانية – ت/ شعيب الأرناؤوط .

٣٨- صحيح البخارى – محمد بن إسماعيل البخارى – ط : دار ابن كثير – اليمامة – بيروت – الثانية – ت/ د. مصطفى ديب البغا – ١٩٨٧م – ١٤٠٧هـ .

٣٩- صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيرى النيسابورى – ط : دار إحياء التراث العربى – بيروت – ت/ محمد فؤاد عبد الباقى .

٤٠- العلاقات الدولية فى الإسلام – محمد أبو زهرة – ط : دار الفكر العربى – القاهرة – ١٩٩٥م .

٤١- عيون الأخبار – لأبى محمد بن مسلم بن قتيبة الدينورى – ط : دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٩٩٦م – الثانية – ت/ لجنة بدار الكتب المصرية .

٤٢- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير – محمد بن على بن محمد الشوكانى – ط: دار الفكر – بيروت .

٤٣- فى ظلال القرآن – سيد قطب – ط : دار الشروق – الحادية عشرة – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٤٤- الكامل فى التاريخ - أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى – ط : دار الكتب العلمية – بيروت – الثانية – ١٤١٥ هـ – ت/ عبد الله القاضى .

٤٥- كشف الغمة عن أسباب فرقة الأمة – السيد سيد أحمد نجم – ط : مكتبة الإيمان – العجوزة – القاهرة – الأولى – ١٤٣٤هـ – ٢٠١٣م .

٤٦- لا تحزن – عائض القرنى – ط : مكتبة العبيكان – الرابعة – ٢٠٠٤م .

٤٧- مآثر الإنافة فى معالم الخلافة – أحمد بن عبد الله القلقشندى – ط: مطبعة حكومة الكويت – الثانية – ١٩٨٥م – ت/ عبد الستار أحمد فراج.

٤٨- المبسوط – شمس الدين السرخسى – ط: دار المعرفة – بيروت .

٤٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد – على بن أبى بكر الهيثمى – ط : دار الريان للتراث ودار الكتاب العربى – القاهرة / بيروت – ١٤٠٧ هـ .

٥٠- محض الخطاب فى فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – يوسف بن حسن بن عبد الهادى المبرد – ط : عمادة البحث العلمى بالجامعة الإسلامية – المدينة النبوية – المملكة العربية السعودية – الأولى – ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠م – ت/ عبد العزيز بن محمد .

٥١- المدخل إلى مذهب أحمد بن حنبل – عبد القادر بن بدران الدمشقى – ط : مؤسسة الرسالة – بيروت – الثانية – ١٤٠١ هـ – ت/ عبد الله بن عبد المحسن التركى .

٥٢- المستدرك على الصحيحين – محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابورى – ط : دار الكتب العلمية – بيروت– ١٤١١هـ – ١٩٩٠م – ت/ مصطفى عبد القادر عطا .

٥٣- مسند أحمد بن حنبل – ط : مؤسسة قرطبة – مصر .

٥٤- مسند البزار – أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار – ط : مؤسسة علوم القرآن ومكتبة العلوم والحكم – بيروت – المدينة – ١٤٠٩هـ – الأولى – ت/ محفوظ الرحمن زينة الله .

٥٥- المصنف – أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى شيبة الكوفى – ط : مكتبة الرشد – الرياض – ١٤٠٩ هـ – الأولى – ت/ كمال يوسف الحوت.

٥٦- معجم الأدباء – ياقوت الحموى – ط : دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١١ هـ – ١٩٩١م – الأولى .

٥٧- المعجم الأوسط – أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى – ط : دار الحرمين – القاهرة – ١٤١٥ هـ – ت/ طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسينى .

٥٨- المعجم الكبير – سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبرانى – ط: مكتبة الزهراء – الموصل – ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٣م – ت/ حمدى بن عبد المجيد السلفى .

٥٩- مفهوم السلام فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف – الطيب البوهالى – ط : دار السلام للطباعة والنشر – القاهرة – الأولى – ٢٠١٠م.

٦٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – أحمد بن محمد المقرى التلمسانى – ط : دار صادر – بيروت – ١٣٨٨ هـ – ت/ إحسان عباس .

٦١- نهاية الأدب فى فنون الأدب – شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى – ط : دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الأولى – ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤م – ت/ مفيد قميحة وآخرون .

مواقع وشبكات ومجلات :

١- موقع هدى الإســــلام .

٢- موقع الفقه الإسلامى .

٣- موقع صيد الفوائــــــــد .

٤- مجلة الوعى الإسلامى .

٥- شبـــــــــكة الألوكـــــة .

٦- موقع القرضــــــــاوى .

٧- موقع قصة الإسلام .

محتويات البحث